كـــان في تلك

المغاني الجميلة

جميع الحقوق محفوظة للنّاشر

الدكتور فؤاد سلّوم

كـــان في تلك المغاني الجميلة

أقاصيص في عمق التراث

دار مكتبة سماحه

جونيه - غادير - طريق حريصا - هاتف: ٩٠٠٣٥٣ (٠٩) - ٢١٣٤٢٦ (٠٣)
بيروت - جديدة المتن - هاتف: ٨٩٠٩٣٩ (٠١) - ٢٣٤٦٣٦ (٠٣)
فاكس: ٦٤٢٢٧٣ (٠٩)

الغلاف بريشة **الفنّان ميشال عيد**

الرسوم الداخليّة بريشة **الأب حسيب الياس**

الإهداء:

إلى أهل مدينتي الصغيرة ذات المغاني الجميلة.

المحتوى

العنوان	الصفحة
١– كان الخلاف إتّفاقاً:	**١١**
إتّفق الشقيّان، سرّاً، على اقتسام المِسَنّ عند الاسكافيّ فاصطنعا خلافاً أدّى إلى حطم المِسَنّ واقتسام أجزائه.	
٢– ليلة قطع الزفر:	**٢١**
آخر أيام المرفع قادت له الصدفة ما جعله يرضي رغبته على حساب التقاليد التي تمنع على المحزون التمتّع بطعام وشراب.	
٣– الرجل رأس المرأة:	**٣٣**
مثل شعبيّ يدّعي أنّ من بلغ الستّين لا يعود ذات نفع. لكنّ الرجل، في الريف، يبقى مبجّلاً في عين زوجه، ولو تجاوز الستّين بكثير.	

٤- حاكم الماء: **٤٧**

أحبّ ناظر الماء بلده وعشق
الأرض والنبت. لكنّ الظروف
القاسيّة اضطرّته إلى الهجرة مع
عائلته. بعد غياب طويل عاد ليموت
ويُدفن في تربة وطنه.

٥- بطّيخة آدم: **٥٩**

على غرار تفّاحة حوّاء التي أغوت
بها آدم، أغوى الراعي حوّاءه
فأشركها في أكل البطّيخة التي
اؤتمنت عليها لتوصلها إلى جارها.

٦- إحمل الفلنطة واتبعني: **٦٩**

خوري الضيعة، المفروض فيه
أن يحمل صليباً على غرار
السيّد المسيح ليخلّص شعبه،
طلب من خادمه أن يحمل البندقيّة
ليفتك، بسبب من سوء الظن،
برسل المطران.

٧- حكاية بدويّة: **٨٥**

نادرة بدويّة تمثّل ما يحصل
في المجتمعات الناميّة من تآمر
واستغلال ولاة الأمر فيها.

٨- عندما تشرب الجداء: **٩٣**

حوّل ماء الريّ من ساقية إلى
أخرى ليسقي جديه، فكاد أن
يتسبّب بمشكلة كبيرة. لكن
عندما اكتشف ناظر الماء أنّه
طفل بريء خمد غضبه.

٩- بين العاميّة والفصحى: **١٠٥**

أراد الأستاذ أن ينقّي إنشاء
تلميذه من حوشيّ اللفظ
وعاميّه فأثخن فيه. لكنّه في
هزّة عاطفية عاد واتّبع معه
أسلوباً تربويّاً سليماً فأفلح.

١٠- الراعي المدلّل: **١١٥**

أصيب الراعي فاستثمر إصابته
إلى أبعد الحدود، مستغلًّا طيبة
مواطنيه، متمادياً حتّى الخداع.

١١– شحّاد تريزيا: **١٢٩**

إمرأة نقيّة محسنة أطمع إحسانها
الشحّاد فأساء الظنَّ بها، وتجرّأ
فناله جزاء إساءته.

١٢– لَوْلا النقش: **١٥١**

قادت الظروف الخادم إلى أن
يتزوّج سيّدته فأذلّها بعد عزّ،
وذلك «بنقشها» أي بضربها
على غرار دأبه في نقش
حجر الرحى.

كان الخلاف اتفاقاً

كانت جبالنا، في عكّار، موئل الخير. غاباتها الممتدّة كثيفة مشتبكة، غنيّة بأنواع الشجر. هضابها خصيبة، يفرشها غضيض العشب، يعطّرها طيّب النبت، يلوّنها زاهي الزهر. ووديانها الظليلة تتلألأ بفضيّ الندى، تفيض بدافق المياه، وتترنّم بعذب الخرير.

على أقدام الجبال، وعند منفرجات الوديان، تقوم قرى، وتنتشر زرائب؛ وما بينها، تستقطب عدّة بلدات ما حولها من تلك القرى والزرائب والمزارع، مُشكِّلة لها سوقاً ومدرسة، يرتادها أهل الجوار، هؤلاء، فيبيعون في سوقها محاصيلهم وطروشهم، وفي مدارسها يتعلّم المحظوظون من أطفالهم مبادئ القراءة والكتابة. عند حدّاديها يطرّقون لهم فؤوساً ومناجل، وعند نجّاريها ينشرون أخشاباً، يجمعون منها أبواباً وشبابيك، وعند البياطرة تحتذي حوافر دوابّهم نعالا. من دكاكينها يبتاعون كازاً للإنارة وزيتاً، صابوناً للغسيل وأقمشة، «مغّيطاً»* للسراويل، وسلعاً أخرى كثيرة... هكذا تزدهر السوق، وتنمو البلدة بدفع ممّن حولها.

بلدتنا «**دير عنان**» واحدة من تلك البلدات، قائمة في منخفض، وادعة بين أسناد الجبال. بيوتها منتشرة على تموّجات التلال، تتوارى مختبئة من الريح، تارةً، وتواجه الشمس مستدفئة، تارةً أخرى. سوقها الزاهرة تتوسّط أحياءها، ممتدّةً على مستوٍ من

* مادّة صمغية تمتدّ وتطول بالشدّ. فصيحها المطّاط.

الأرض، واسع. ويعمل بنو الدير، في هذه السوق، بنشاط وحذق؛ ويؤمّها أهل الجبال مستصنعين أو شارين بائعين.

وكان والدي، رحمه اللّه، إسكافاً مرموقاً، ساهراً على صنعته يتقنها كلّ الاتقان؛ ودكّانه كانت قائمة وسط السوق، تتّسع لكلّ أنواع الجلود والنعال، يُعِدُّ منها أحذية ترضي جميع أصحاب الحاجات والأذواق، وإلى أيّة فئةٍ انتموا: «جزمات»* عربية، مخيّطة، مسمّرة، متينة، طويلة الساق، يرتفع لسانها حتى ما فوق الركبة، ينتعلها المكارون والضاربون في الفلوات البعيدة، وأخرى إفرنجية، مبطّنة، قاسية، قصيرة، تنتفخ عند بطّة الساق، مدروزة بخطوط زخرفية، يقتنيها الخيّالة من البكوات ورجال «الجندرمة» ومأموري الأحراش. وكذلك يصنع والدي «الأساتيك»* «بمغيّط» أو بأزرار ملوّنة، لأعيان البلدة ومخاتير الجوار؛ هذه، من الجلد الافرنجي، أمّا «مشّايات» الجلد «السختيان»*، فيصنعها للفلّاحين والرعاة... وفوق ذلك، كان يصلح المثقوب والمَمْزُوق والمهترئ من أحذية الفقراء، يصلح الحذاء الواحد مراراً وتكراراً، حتى لا يعود يعرف أصله من المضاف إليه، شكلاً ولوناً. ولأنّ

* مفردها جزمة. حذاء طويل الساق. اللفظة تركية، عربيّتها: سوقاء.

* المفرد: أستيك. تحريف اللفظ الفرنسيّ: إلستيك أي يمغّط، يمط. Elastique. وهي أحذية ترتفع في الساق حتّى الكاحل، وعلى الجانبين مغيط.

* جلد الماعز اذا دبغ. فارسية.

والدي، هذا المعلّم الحاذق، كان بشوشاً، مرحاً، حسن المعاملة، صادقاً، قصده الزبائن من شتّى المشارب، فكان يغصّ دكّانه بهم، حتى استعان بصانعين، يتدرّبان على الصنعة، ويساعدانه من الصباح حتى العصر، ثم ينصرفان، ويبقى، بعدهما، حتى العشيّة، وأحياناً حتى السهرة، إذا دعت الحاجة إلى تلبية طلب ملحّ.

وكان من زبائن دكّان أبي رعاة أشدّاء، وأفّاقون سراة ليال، ونخّاسون، وجلاوزة، وأشقياء... ومن هذا الصنف الأخير، الشرس، رجلان صاحبان: راشد وسلمان، يمارسان طرفاً من كل مهنة من مهن أبناء الغابات. راشد كهل بدأ الشيب يغزو شاربيه، طويل هزيل، عصبيّ الحركة، يلتثم بكوفيّة غبراء، يخفي بها فجوات واسعة فيما بين الذي تبقّى من أسنانه السوداء المهترئة، وتلتمع من خلالها عينان صغيرتان مراوغتان.

أمّا صاحبه سلمان فأكثر شباباً. معتدل القامة، مكتنز، منتفخ الخدّين، زهريّ الوجنتين، حسير الرأس، حليق الشعر، عدا ذؤابة شعثاء فوق جبينه. في عينيه المدوّرتين الواسعتين سذاجة، وفي حركاته رعونة، يضبط من انفلاتها سطوة صاحبه راشد.

ذات عشيّة، وقد خلا الدكّان من زحمة الزبائن، ومن الصانِعَين، تأخّر والدي في دكّانه، يفصّل بتأنٍّ ودقّة، «جزمة» جديدة، أوصى عليها رئيس المخفر الجديد؛ فحرص والدي، هذا

الاسكاف الذي يحترم نفسه، على أن تكون عبرة تحمل توقيع براعته في صنع الجزامى، وتقود إليه زبائن معتبرين.

ودخل الزبونان غير المنتظرَيْن، راشد وسلمان. رحّب بهما ترحيب غير المشتاق، فهو كان يستثقل ظلّهما في أفسح الأوقات، فكيف في هذه الحشرة؟ لقد كانا، دائماً، متطلّبين، يصلحان ما يحتذيان ولا يدفعان، يطلبان ضمّة مسامير، وسريدة نعل، وقدّة جلد، وحفنة «سراس»* ، وبنوداً... ويخرجان مودِّعَين، شاكرَين، محيّين تحيّة العارف المعترف بالجميل... دخلا، هذه العشيّة، وسلّما تسليم المشتاق، وجلسا يسألان سؤال المهتمّ، عن الصحّة والحال والعائلة والعمل... فيجيبهما جواب المنهمك في شغل بين يديه، يستحوذ جلّ اهتمامه... وصمتا يرقبانه وهو يُعمل سكّينه الرهيف بضعاً وقطعاً، تشفيفاً وفصلاً، في جلد برتقاليّ طري.

وَلشدّ ما كان يجذب نظرهما وإعجابهما رشاقة أبي في التعامل مع السكّين، يحزّ به على حدود «هندازة»* الورق، المُطبقة على «طاق»* الجلد؛ يأخذ «المهندز» منه يرفعه أمام عينيه، يقلّبه وجهاً وقفا، مطمئنّاً إلى مطابقته «الهندازة»، حسب مراده، فيضعه

* مسحوق يخلط بالزيت فيتحوّل إلى صمغ يلصق به النعل.

* القياس من الورق عند السكاف يفصّل عليه جلد الحذاء. فارسية.

* طبقة، صفيحة. عامية. في الفصحى: نوعان من الثياب بغير جيب.

جانباً؛ ويعود بالسكّين إلى مسنّ الحجر، المرطّب بالزيت، يشحذه به مرّات ومرّات، ثم ينتقل به إلى «الطسمه»* المعلّقة أمامه في الطاولة، «يطسّمه» به ستّ سبع مرّات، ثمّ يمسحه بقماشة، فإلى المِسْتَحدّ، يأخذه بيساره، ويصكّ السكّين به، بمثل ما «طسّمه» ليعود إلى القطع والفصل في الجلد أو النعل القاسيّ؛ والسكّين على رهافته ومضائه، لا يَفُلّ حدّه حزّ ولا قطع، والفضل في ذلك، يعود، في الدرجة الأولى، إلى المِسنّ.

والمِسنّ بضاعة نادرة في الريف، والمدينة بعيدة، والنقل عزيز؛ فلا يتوفّر المِسنّ في المخازن الصغيرة، هنا، حيث لا يقتنيه إلّا ذوو حرفة، وما أقلّهم!. ألإسكاف يقتنيه، إذ لا غنى له عنه، فسكّينه، من غيره، لا يقطع جبنة.

أمّا الرعاة، أرباب الغابات، فأهل شقّ وقطع، تستهويهم الرهافة في الحراب، والمضاء في الشفار، فالغصون والعيدان، بأخضرها ويابسها، تعترضهم أينما توجّهوا، تُتلف حدائدهم، وتأكل من شفارهم، رقّت أم غلظت، فلا علاج لها إلّا مِسنّ حجر، ولو كان صغيراً.

كان راشد وسلمان يرقبان باهتمام وإعجاب هذا السكّين الرهيف، المتأنّي مرّة، النزق أخرى، والفعّال دائماً، وهو يروح

* قدّة من الجلد تستحدّ عليها السكّين. (فارسيّة)

ويجيء بيمين الاسكاف، لا يكلّ، يقطع بسهولة ودقّة، يتجدّد شبابه بحكٍّ على حجر، وبدغدغة من جلد، وبمعانقة من فولاذ! لكن إكسير شبابه، ولا شكّ، هو في ذلك الحجر الأسود، المربّع، السميك، المزيّت، تحتضنه خشبة، يقرّبها الاسكاف، أمامه، ويبعدها، على قدر حاجة السكّين...

كان الصمت يخيّم على المكان، لا يعكّره، بين فترة وأخرى، سوى حكّ السكّين على المسنّ!. لكن حسّ إشارات، وهمهمة شفاه، بدأا ينبّهان وعي والدي، فأوقف حركة يده، وأرهف سمعه، لتتبيّن أذناه، من بعد، كلاماً مُلغِزاً، غامضاً، لم يفهم معناه، وحتى لم يتوقّع قصده؛ فنظر باتّجاه الضيفين مستطلعاً؛ فما كان من سلمان إلا أن رفع صوته في وجه راشد، قائلاً بحدّة، مموّهاً: «إن كان بدّك تفلّ، «فلّ»* وحدك، أنا بدّي انطر!. «الزلمي»* مشغول» – مشيراً إلى والدي –. فصاح راشد: «أنا لمّا قوْل: قوم تَنْروح، يعني لازم تقوم!».

وردَّ سلمان صارخاً... وزعق راشد... وانتصب سلمان... «وفحص»* راشد متأهّباً!...

* إنصرف. عاميّة.

* الرجل. عاميّة.

* الأصل: بحت برجله في التراب. العامّة تقصد وقف بقوّة وسرعة.

فوقف والدي منتهراً الاثنين: «شو بكن؟ ليش مختلفين؟ بعلمي صحاب! يالّا، روحو تنينكن، أنا، اليوم، ماني فاضيلكن...!»

فهمدر راشد: «عجبك هيك ولاه؟ بدّك تنطر حتّى نروح مطرودين؟...»

فأومأ سلمان بصوته ووجهه وجذعه ويديه كمن سيأخذ بتلابيب خصمه. فما أن رفع راشد قبضته حتّى كان والدي واقفاً بينهما، يأمر أو يرجوهما كسر الشرّ، والعودة إلى الهدوء والسلام، مما زاد في اهتياج الصديقين اللدودين، صياحاً وحركات، وهما يدوران حوله، يسحبان قدميهما على الأرض سحباً، كأنّهما في رقصة... إلى أن انفلت سلمان إلى ما وراء الطاولة، فلحقه راشد، ودار سلمان، وتبعه راشد متناولاً المِسنّ من على الطاولة، منتظراً أن يصل سلمان إلى ما بين كرسي والدي والحائط، في مواجهته، ليقذف رأسه بالمسنّ، لكن سلمان كان قد نزل خلف الكرسيّ، حتى قبل أن يهمّ راشد بالرمي، فصدم المسنّ الحائط بقوّة صاعقة، لينقسم ويتشظّى، ممّا جعل العاصفة، بينهما، تسكن توّاً، وكأنّها مأمورة، فأسرع الخصمان يلمّان، من على الأرض، أكبر قطعتين من المسنّ المكسور، فيضع كلّ واحد قطعته في عبّه، وهو يردّد: «انكسر الشرّ، انكسر الشرّ»... وتوجّها، بعد ذلك، صوب الباب خارجين، فما لبثا أن غابا في أعماق الغسق الذي لفّ السوق، غانمَيْن.

أمّا والدي فبقي واقفاً، مشدوهاً، إلى أن أفاق بعد قليل، وهو يتمتم مردّداً: أها أها! إذاً... كان خلافهما اتّفاقاً على اقتسام المسنّ!...

أنا المغفّل، أنا المغفّل.

ليلة قطع الزَفَر

كان ذلك منذ خمسين سنة!.

..

كانت قريتنا لا تزال غافية في ظلال الوادي، متوارية خلف التلال، حيّية من أن تُفاجأ بزيّها القديم: رجالها ما زالوا يلبسون الشِروال، ويشتملون بالكوفيّة والعقال فوق اللبّادة. نساؤها يلبسن شِروالاً فضفاضاً، مجموعَ طرفي الكمّتين عند بطّة الساق بمطّيطة أو تِكّة صغيرة، يغطّيه جِلباب واسع، طويل الذيل حتّى الكعبين، ويعتمرن على الرأس لفعة وخماراً يغطّيان اللِّمم أو الجدائل. بيوتها كانت لا تزال ترابيّة، فقيرة الأثاث، يتشارك السكنى فيها الانسان ودوابُّه، وسيلتُه في انتزاع الرزق من بين أشواك الحقول وصخورها. أمّا زواريبها المُحْصِبة، الملتوية، فمزروعة بروث الماشية، محفوفة بالقرّيص*. إسم قريتنا «غوايا»، أي الداخلة؛ قل المختبئة، فذات زيٍّ عتيق تستتر.

وكان الناموس يسود القرية تماماً. إنه الشريعة المقدّسة التي يحرص أهل القرية على الالتزام بها، فلا يخرج عنها إلّا فاجر! سرعان ما يسقط من عيون الجماعة ويُنْبذ، فيضيق به عيشه، فيهاجر. والناموس، أليس هو عادات السلوك الاصليّة، التي سنّها القدماء الحكماء، فكانت سبباً للبركة التي ترتع فيها القرية منذ

* نبات زهره أقراص لاذعة.

زمن بعيد؟. بيادرها أغنى البيادر، وسواقيها أغزر السواقي، وحرجها أكثف الأحراج، ومراعيها يشتهيها كل ذي ظلف وحافر... أما شفيع القرية فهو «مار جرجس»، أفرس الفرسان وأهيب القدّيسين، يحميها في أيام القحط، إذا ما طال انحباس المطر، فتُقام مسيرات الاستسقاء، «تزيّح»* صورته، فيمشي وراءها الجمهور مرتّلاً، بينما «تصدح» الصنوج، وتعطّر المباخر الأجواء، فلا يلبث المطر أن ينهمر. ويردّ مار جرجس الأوبئة عن القرية؛ أما إذا اجتاح الجدري والهواء الأصفر في بعض غفلات الزمن، فمعنى ذلك أن الناموس قد تعرّض للانتهاك من بعض أصحاب العادات الرديّة.

وتمضي الحياة في «غوايا» هادئة، هانئة، لا يعكّرها إلا حدث جلل، مثل موت شيخ وجيه، أو شابّ نضير، ينقرف عوده في غير أوان، أو يخطف عزرائيل، لا سمح اللّه، وحيد أمّه، على حين غرّة.

أما ما تبقّى من أحداث، كانهدام زاوية بيت، أو نفق بقرة حلوب، أو احتراق كديس حنطة، أو اجتياح الذئاب للزرائب، أو أو... فهي حادثات هيّنات، قد رتّب لها الناموس مأثرة يتباهى بها الآباء والأجداد، هي نظام العونة، إذ، في مثل تلك الحالات، سرعان ما يأتي العون بنخوة الشباب، فيرفعون الزاوية المنهارة،

* طواف بالصورة أو الأيقونة مع التراتيل. (سريانيّة)

ويطفئون الحريق، ويتصدّون للذئاب، أو يفرقون الفَرقة، برعاية المختار وإشراف الخوري، ويعوّضون «المنكوب»، حتّى تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي، ويسلم الناموس.

لكن الجمرة لا تحرق إلّا مطرحها. وكانت الجمرة الحارقة يوم «تنّيحت»* جدّتي – رحمات اللّه عليها–. كان والدي، رحمات اللّه عليه، هو أيضاً، يعزّها كثيراً، إلى درجة تجعلني، في سرّي، وكلّما تذكّرت ذلك، أخجل من نفسي، لأنّني لم أكن أعزّ أمّي، أنا، – رحمها اللّه – كما كان أبي يعزّ أمّه. بل، ويا للعجب! كنت أحبّ جدّتي أكثر من أمّي، وربّما كان هذا تخيّلاً، وربّما كان، في ظنّي، إرضاءً لأبي وتقليداً له، فقد كنت شديد الاعجاب بكلّ حركاته أو سكناته.

ماتت جدّتي فشعرت كأن أركان الدنيا قد اهتزّت من حولي، وأطبقت علينا، على العائلة بأجمعها. ولشدّ ما كان ينخلع قلبي، في صدري، ذلك اليوم، عندما كنت أرى والدي «يفحص»، كالملسوع، من على «الدشك»* الذي يجلس عليه مع رجال القرية، في بيت الجيران، ويندفع من الباب صارخاً، ملوّحاً بالمنديل (منديل؟ بل قطعة قماش بيضاء قدّوها له على عجل) نادباً، ومتبوعاً بالاهل والمعزّين، فيسرع إليه صديقان، أو نسيبان،

* ماتت. سريانية.

* مقعد طويل من الخشب يفرش للجلوس. (فارسيّة)

يأخذانه من تحت إبطيه، يساندانه كمن انحلّت ركبتاه، فيُخشى سقوطه، فيدخل، وندخل وراءه، إلى بيتنا حيث تُسجّى الراحلة الحبيبة، وحولها النساء النادبات المنتحبات، لتبدأ المساجلة بينه وبينهنّ: منه بيت عتابا يفطر قلب الصخر، ومن كلّ جميلة الصوت بيت، ثم من عمّتي الحنون، الوحيدة، سحبة «أبو الزلف» ومن النادبة المختصّة، المأجورة، ردّة «سكابا يا دموع العين سكابا، غاب «ولف»* قلبي ما ردّ الجوابا»، حتّى تروح المناديل تنعصر عصراً من سحّ الدموع. كان هذا المشهد يتكرّر مراراً في النهار، قبل ميعاد الجنّاز. وكان يضطرّني الناموس، ولو صغيراً، أن ألحق بوالدي، وأن أبكي بكاءه! كنت أشهق بالبكاء، مخفياً وجهي بزندي الذي أسنده إلى حائط البيت، حتى لا تقع عيني على وجه الراحلة الحبيبة الذي سكنت في قسماته الحياة... لا أنكر أنّني كنت أبكي صادقاً، لكنّني غير متأكّد إن كنت أبكي حزناً على جدّتي، أم أبكي لبكاء والدي!

غابت الشمس، فوارينا جدّتي، المأسوف عليها، مع غيابها. وعاد الموكب الصامت من المقبرة، خلف الخوري الذي كان يحمل المبخرة أمام النعش، إلى البيت، فأقام، فوراً «صلاة البخور»، وقفنا، بعدها، في الجوّ الضبابيّ العابق برائحة البخور، رائحة الموت، نتقبّل التعازي حتى ساعة السهرة...

* صديق. عاميّة.

وخرج آخر المعزّين والمؤاجرين من جيران وأنسباء، فقبعت عائلتنا متهيّبة، تنتظر ما سوف يتلو من جهاد النهار الحزين، وما سيتفوّه به الوالد المفجوع من كلام خطير، فكنّا ننظر إليه من طرف خفيّ! ولم يطل الأمر حتى سمعناه يتنهّد مرتاحاً، ثمّ يبادر قائلاً: «الحمد للّه، كان العزا حلو، آجرت معنا الضيعة بأجمعها، اللّه يآجرها، كلّها ناموس!... كمان جات ضيع الجيرة تواسينا. أم الياس (يعني جدّتي المرحومة) بتستاهل». لست أدري لماذا، بعد هذا الكلام، وفجأةً، صغرت المصيبة في عينيّ؛ وأحسست بارتياح كبير، فها الدنيا باقية بخير، ولن تنتهي سعادتها بعد موت جدّتي، ولن تفقد العائلة أمانها، كما كنت أتصوّر، وكما أوحى إليّ سلوك أبي، في النهار؛ لكنّي أدركت بعدها، على ما كنت أسمع من الكبار، ومن أبي، بالذات، أنّ «البكي على راس الميّت حلو» أما بعد ذلك، فلا... على كلّ حال، أحسست بعد أن أنهى أبي كلامه ذلك، أنه أسدى إليّ جميلاً لا ينسى، فشكرته، في أعماقي، جميل الشكر.

لكنّ جدّتي، لسوء الحظ ماتت ودفنت في بداية أسبوع «المرفع»* . تعاليم الناموس واضحة، صارمة: أهل الفقيد، قبل الأربعين، لا يدقّون «الكبة» في الجرن. الرجال لا يحلقون

* أسبوع قبل الصوم عند المسيحيين، يطلق فيه الناس العنان لأنفسهم في أكل اللحم وشرب الخمر وأنواع الحلوى.

ذقونهم، والنساء لا يغسلن ولا ينشرن غسيلاً أبيض؛ فهذه علامات فرح! ربُّ البيت لا يُميل عقالاً ولا لبّادة إلى جانب رأسه، كما لا يردّ طرف شملته السوداء، بحركة غوى، إلى الخلف... هكذا مضت أيام أسبوع «المرفع» ثقيلة، بطيئة، متجهّمة، قاسية. في اليوم الأول جاءتنا «صينيّة» أكل «قاطع»* على الغداء، وثانية، على العشاء، مثلها، من عند الجيران. في اليوم الثاني قامت والدتي، متثاقلة، وبحياء، فطبخت «من قريبو» مقلاة من البرغل الناشف (المحزونون لا يتلذّذون بطعام، ولا يتحلّون بالمربّى أو الدبس قبل الأربعين، يقول الناموس). هكذا بدأ صيامنا، قبل أهل القرية، بأسبوع، وسيفوتنا الاحتفال السعيد باليوم الأخير، أحد ايام «المرفع». حتّى الجيران سيخفون، قدر المستطاع، احتفالاتهم، حتى لا يأسروننا، وأبعد اللّه الشماتة!

مرّت أوّل أيام أسبوع «المرفع» قاسية في النهارات، محتملة في الليالي. عند حضور المؤاسين لا ينبث أهل البيت بكلمة، حتى إنهم يجيبون سائليهم باختصار: نعم، لا؛ أو بهزّة من الرأس سلباً أم إيجاباً. الابتسام ممنوع. الضحك؟ لا سمح اللّه. حتّى الأطفال يحظّر عليهم الضحك، فسرعان ما كان ينتهرنا الوالد: «تأدّب يا ولد!» ... لكنّ تلك القساوة تستلين عندما يخلو البيت من الضيوف، وتختلي العائلة بنفسها، آخر السهرة، فتتراخى أمراس

* لا لحم فيه ولا سمن.

الناموس وتنطلق النفوس على سجيّتها، ولو بحذر، إذ تبقى العيون تترصّد الباب المغلق.

وأشرق صباح «خميس السكارى»، «فاستحقّها» أبي!... دبّت الحركة في أزقّة القرية. الناس يروحون ويجيئون. الذبائح السّمان معلّقة في شناكل الحوانيت. جرار «الشنكليش» الناضج فُضّت أختامها. تحركت «مراطبين» المكبوس من «الخرستانات»*. «ألفيّات»* العرق سُحبت من المخابئ، نُفض عنها الغبار، وأجلست في الشبابيك متشوّقة إلى لُقيا الأقداح.

الأجران بدأت تتجاوب صادحة، فرحة بملقى النعنع والبصل مع البرغل واللحم... إلّا في بيتنا، نحن «المعتّرين»، فكلّ شيء صامت، ساكن، لا يقطعه بين حين وآخر، إلا تنهيدة عميقة وزفرة من فم والدي الذي تعوّد، على قدر ما يعشق كأس العرق، أن تكون كلّ ليلة من لياليه «خُميِّس» سكارى! فكيف بهذا الخميس الذي ينتظره الناس، هنا، مرّة في السنة؟ وهو، من بين الجميع، منتحٍ عن حلقات الدبكة، وردّات العتابا، وكرع العرق؟! كان من السهل عليّ، ساعتئذ، أن أقرأ في ذهن أبي: أنّه عاتب أشدّ العتب على جدّتي، لأنها لم تؤجّل الرحيل، أقلّه أسبوعاً واحداً! ما ضرّها

* المفرد خرستانة. خزانة صغيرة في الحائط. (عاميّة تركيّة)

* مفردها ألفية وهي قنّينة طويلة على شكل ألف تسع ثلاثة ليترات.

لو ذهبت اثنين «الرماد»*؟ لقد كان نهار خميس السكارى آلم على والدي من نهار الدفن، لكنّه ألم صامت، امتنع فيه عن الأكل ظهراً ومساءً. كذلك نهار الأحد، يوم وداع «المرفع»: عند الظهر وضعت والدتي صحون «المجدّرة» على صينيّة القش، تجرّأت، – كأنّها تجرّأت – فكسرت فحلاً من البصل «السلموني». دعته: تفضّل... لكنّه، كيوم الخميس، لم يتفضّل! بقي صامتاً، جالساً في مكانه على الحصير، ممدّداً رجليه، عاقداً كفيّه خلف رأسه، حارناً في الخواء، كلّما كرّرت الوالدة دعوته إلى الغداء، ينظر إلى صحون «المجدّرة» التي تتصاعد منها «الهبلة»*، ويشيح بوجهه عنها، وهو على غيظ كظيم. لم نجرؤ على التقدّم من «المجدّرة» الساخنة، من دونه، فأمر: «كلوا يا ولاد»! فأقدمنا...

لم تكد ترفع والدتي «الصينيّة» عن الأرض، عليها صحن الوالد الذي لم يُخمش، حتّى وقفت متعجّبة، وحدّقت بالباب! هذا زريف (ظريف) كلبنا يدخل بارق العينين، يبصبص بذنبه، وبين فكّيه صرّة سوداء. انصبّت عليه الأعين!... «زريف، إيش معك؟» تعال!... تقدّم ظريف ووضع هديّته بين يدي الوالد، ووقف ينظر

* طقس ديني في أوّل يوم صيام عند المسيحيّين يغمس فيه الكاهن إصبعه أو قطنة في رماد الزيتون المجبول بالزيت، ويرسم به علامة الصليب على جبين المؤمن قائلاً: تذكّر يا إنسان أنك تراب وإلى التراب تعود.

* البخار. (سريانيّة)

وينتظر... «فلش»* والدي الصرّة... تمتم: أربعة أقراص من «الكبّة» المشويّة، تلتمع بالزبدة، بين رغيفين من خبز «التنّور»، وبيضات مسلوقات، ورقعة صغيرة ملفوفة على قبضة زيتون، وقطعة كبيرة من التين اليابس المدقوق مع الجوز والسكّر!...

– «شو يا ظريف، زوّادة؟ سرقتها أم لقيتها؟»

(يعلم اللّه)

وافق ظريف على الكلام بهزّة من وسطه «وحنجلة»* بمؤخّرته، ثمّ مطّ رقبته ومدّ يديه أمامه على الأرض، وربّت بهما مناوباً بنقرة ونقرتين، كمن يفتتح رقصة الدبكة... قرّب والدي أقراص «الكبّه» من منخريه وشمّها: دافئة، طريّة... رمى بقرص إلى الكلب! لعلّها مسمومة؟ ليذهب ظريف فداءً... وأشار إلى والدتي أن: أنزلي الصينيّة، وضعي هذه – الزوّادة – في «النمليّة»*. ثم استدار إلى صحن البرغل وأكله برضى كمن اطمأنّ إلى مستقبله، مرتاحاً من قلقٍ كان يأخذ به!...

نزل ظلام ليلة الأحد، ليلة قطع الزفر، بطيئاً... أشعلنا القنديل

---

* فتح. (سريانيَة)

* تمايل. اهتزاز.

* قفص، مقفل بشبك، ضيّق الثقوب، كان يعلّق في سقف البيت، قبل ظهور البرّاد، ليحمي الأكل من النمال والذباب...

وسهرنا بعضاً من سهرة. علّق والدي قائلاً كمن يقطع الانتظار: «ما جاءنا أحد الليلة! الناس مشغولة. ساعة خير!» والتفت إليّ آمراً:

– «إغلق الباب ودربزه»* . ضع القنديل على «الكفتورة»* ونوّصه».

وإلى والدتي:

– «جيبي السْكَمْلة».

فهمنا: «السكملة» للاحتفال الذي لا يكون إلّا بكأس العرق، فهي طاولة خشبية صغيرة، يجلس عليها الكأس مرتاحاً.

لمّا تردّدت والدتي، وهي تنظر إليه كمن يأتي منكراً، هو بنظرها يكسر الناموس! واجه نظراتها بتصميم وتحدٍّ، وأكّد:

– «إي، إي». ضعي عليها صحن برغل (للتمويه).

جاءته بما طلب، ووقفت تنتظر التعليمات الجديدة، لأنّها عرفت، من السياق العام، أن للأمر صلة... وأشار إلى النمليّة بنظرة، وإلى «الخرستانة» بأخرى؛ ففهمت المعنى، لكنها عادت تستنكر بتقطيب وعبوس، وتقلّب كفّيها، وتنقل نظرها بينه وبين الباب المغلق! فأصرّ:

* قفل من الداخل يمنع فتحه من الخارج. (عاميّة)

* رفّ من قضبان وطين في الزاوية مقعّرة قليلاً يوضع عليها القنديل. (سريانيّة)

– «خلّصينا...»

ورفع يده اليمنى، وقد أفرد منها السبّابة، وحيّز على وسطها بإبهامه، بما يعني أنّه يريد نصف كأس من العرق، وقال بصوت يخنقه الدمع:

«بدنا نحرحِر تمّنا»!.

وجاءته بـ «الكبّه» المشويّة والزيتون والبيض و«الشنكليش»، و«بمدقّة»* العرق، وبالكأس... وضع الكبّة والعرق تحت «الاسكملة»، والباقي عليها، حول الصحن الشرعي، صحن البرغل. وراح «يمزمز» كأساً وثانية وثالثة و و و...»

تلك الليلة شعرت أنّ لوحة الناموس يمكن أن تنشعر، ولو شعراً مخفيّاً، ويتّسع على الأيام،

وها قد انشعرت!...

ولم أكن مستاءً!

* قنّينة على شكل المدقّة.

الرجل رأس المرأة

«إبن الستّين للسكّين! إبن الستّين للسكّين!»

كنت أسمع، في طفولتي، امرأة عمّي «غالية» تردّد هذه اللازمة مراراً، بمناسبة وبدون مناسبة. هي تعني عمّي يوسف بقولها «إبن الستّين»، وتخصّه «بالسكّين» لأنّه شاخ ولم يعد به نفع، قياساً على فدّان تقاعد فأقيل من الفلاحة، أو دجاجة لم تعد تبيض... وجلّ قصدها التعريض به، وإعلان الشكوى، بل اليأس.

لهذا السبب كنت أكرهها، في سرّي، وسجّلت اسمها مع أعدائي الكثر الذين كنت أقيّدهم على اللائحة السوداء لأهون سبب؛ وكانت كلّ أسبابي هيّنة، أبنيها على ما ظهر من الأمور. أفما كنت طفلاً؟

صحيح، كانت امرأة عمّي تحبّني، وكنت أشعر بصدق حبّها لي دون أدنى ريب؛ لكن تجرّؤها على عمّي، كنت أعتبره وقاحة وتجنّياً. عمّي يوسف كبير أعمامي، ومحطّ احترام العائلة بأجمعها. الكلّ يسمع كلامه، يستشيره، ويقف على خاطره في كلّ أمرٍ غير اعتيادي؛ لا سيما أبي، صغيرُ إخوته، الذي كان يجلّه كثيراً، ويفرض علينا أن نحترمه، وأن نقبّل يده في الأعياد والمناسبات.

ولم أكن أرى عمّي سيّئاً، بل ودوداً، عطوفاً، نصوحاً، يحمينا، في ذلّاتنا، من غضب أبي؛ وكنت الأكثر حظوة بحمايته لأنّي

كنت نزقاً، والأكثر مشاغبة بين أطفال العائلة. وكذلك كان عمّي من وجهاء الضيعة الأوائل، يستشار في كلّ كبيرة وصغيرة: يدعى إلى الإجتماعات، ويستقبل المؤتمرين من أهل الضيعة، في بيته، ويزوره كبار الضيوف والغرباء.

إذاً، لماذا السكّين، يا امرأة عمّي «الغالية»؟...

كان بيتانا، بل كوخانا، متجاورين، نعيش فيهما كعائلة واحدة، تختلط نهاراً، وتفترق ليلاً، ليأوي كلّ إلى كوخه.

وككلّ بيوت القرية، في ذلك الزمان، تألّف البيت من غرفة واحدة، كبيرة، مبنيّة بالحجر الغشيم، لها باب واحد للبشر والدوابّ والطيور. سقفها من أخشاب، وسطحها من تراب، عليه «مِحْدَلة»* ترصّ ترابه في مواسم المطر، فلا يَدْلِف. يتشارك السكنى فيها الإنسان والحيوان، فإن أيسر الأوّل، وكثرت دوابّه، فصل بينه وبينها بقاطع من قضبان الدفلى المطيّنة بالوحل والقشّ، وفي أحسن حال بحجر صغير مطيّن، فسمّيت هذه الزريبة بِـ «الخمّون»...

أبي كان إسكافيّاً، فاقتصر اقتناؤنا الحيوان على أتان لجلب الحطب، وعلى بقرةٍ حلوب، فاعتبرت أنّنا الأفقر حالاً، أما الأغنى فبيت عمّي، لهذا كنت أكثر احتفاءً بهم، وأكثر تردّداً إلى بيتهم.

* أسطوانة من حجر في كل طرف منها كوّة صغيرة لِتُجربهما على السطح. عاميّة.

أما عمّي فكان مُكاريّاً، يتجر بالأخشاب والقطران، ينقلهما من غابات جبالنا الكثيفة إلى بادية الشام، على بغلٍ أحمرَ، صغير الجثّة، نشيط. ومن تلك السوق المترامية الأطراف، التي لا ترتوي جلود إبلها الجرباء من القّطران، ولا تكتفي خيمها وسطوحها من الأخشاب، كان يعود بالحكايات... ويا لها حكايات! تحكي عن المسافات بعد المسافات، وعن الغبار تثيره الريح. عن الجفاف والعطش، وعن الظلام وعواء الذئب. عن الجوع وكرم الضيافة، وعن قطّاع الطرق تطاردهم الحكومة. عن الخيام والمضافات، وعن القطعان تتلوها قطعان. عن شيوخ البدو وخيولهم، وعن حنين الربابة الكئيب. عن العيون السوداء الواسعة، وعن قصص العشق الملوّنة بالدمّ...

هكذا عزّ البغل الأحمر، فأوى مع العائلة، وأوَت البقرات والعجول والدجاج إلى «الخَمّون»*، بجانب البيت. والحكايات المدهشة عزّزت عمّي في نفوسنا، نحن الأطفال، لا سيّما في قلبي، فكنت لا أميّز بينه وبين أبطالها، في أكثر الأحيان... لكن، رغم تحيّزي الفاضح إلى عمّي، وإعجابي به، ورغم رفضي لمقولة امرأته: «إبن الستّين للسكّين»، كنت أشعر أنّ في شكواها وتذمّرها بعض الحقّ، فهو، وعلى حدّ قولها، لم يكن «نَتّيجاً». والخلايا الطينيّة، القّمعية الشكل، في الزاوية، لم تكن تمتلئ بالقمح والذرة

* غرفة صغيرة إلى جانب بيوت القرى تُصطنع زريبة. تصغير شعبي للفظة «خُم».

إلّا مرّتين في العام، بين بداية الصيف ونهايته، لا سيّما في السنين الأخيرة. وما كان فرح الحكايا الجميلة يدوم إلّا لليلة، فما أن يطلع الصباح حتّى تدهم الحاجات الملحّة، والتي لا نهاية لها... العائلة كبيرة ببناتها وصبيانها: خمس بنات زائد ثلاثة صبيان، زائد أب وأم يساوي عشرة أفواه. زائد كسوة وحدوة وصابون وأدوات... يكون الحاصل، لولا الإيمان الراسخ بالعناية الإلهيّة، يأساً.

وإذا لم يجن ربّ البيت، فمن يجني؟ المرأة؟ نعم. ذلك كان واقع الأمر في بيت عمّي! وإن كان المثل المأثور: «الرجل جنّا والمرأة بنّا» دائم الاحترام، في بلادنا، يردّده الناس، كلّ الناس، بلا كلال سواء انطبق على الواقع أو لم ينطبق. هكذا تعوّد الناس، بمرور الزمن، على أن يقولوا وعلى أن يتصرّفوا. فكم تستطيع الوقائع الراهنة أن تغيّر ما تعوّد عليه الناس، زمناً طويلاً؟

كانت امرأة عمّي «غالية» متوسّطة القامة، بيضاء اللون، عسليّة العينين، صغيرتهما، معقوفة الأنف، محنيّة الكتفين، قليلاً، وكأنّ الطبيعة قد أعدّتهما لحمل مسؤوليّات ثقيلة؛ كما كانت عالية الهمّة، رشيقة الحركة إلى حدّ النزق، حرّة الطبع لا تنام على ضيم...

مع ملامح الفجر الأولى كانت تستيقظ امرأة عمّي، تشعل الموقد، وتضع عليه إبريق الزُوفى، يغلي ريثما يستيقظ عمّي يوسف. وتخرج إلى «الخمّون»، تضع التبن في معالف البقر، وتحلب البقرات، تجمع حليب الصباح إلى ما كانت حلبته مساءً، وتحمله إلى صاحبة الدور من الشريكات، تكيله لها، وتعود سريعاً لتحرّر البقرات، فتسلمها إلى الراعي الذي يسوقها، مع أبقار الضيعة، إلى المراعي؛ حتّى إذا ما خلا «الخمّون» من سكّانه، عمدت إلى كنسه، ونقل القمامة إلى المزبلة خلف البيت. ثم تلتفت إلى معجنها، تحضّر العجين، فإلى التنّور أو الصاج، فتخبز حاجتها. وإذا أعوزها الحطب لتحميّة التنّور، تصعّد في الجبل المقابل، مع زميلات لها، يجمعن «السيكون»* ، يشقعنه حملات، حملات، «يُدَرْكِبْنَهُ»* على السفح الأحلط، فتتدحرج إلى الوادي، فيحملنها إلى البيوت بانتظار ما يحتاجه التنّور عند كلّ خبزة. أما إذا كانت الحاجة إلى السيكون غير ماسّة، فالحاجة إلى الحشيش دائماً ماسّة، لأنّه طعام البقر يأكله طريّاً ويأكله جافّاً، وكلّما كثر جفيفه، كلّما ساعد المتبن في الصمود حتى آخر الشتاء. لذلك تحمل امرأة عمّي أعدالها إلى الحقول البعيدة، تجمع أكداس الحشيش، تكدّسه في الأعدال، تاركة منه حملاً

* أغصان يابسة من غير ورق. المفرد «سيكونة». (سريانيّة)

* يدحرجنه. (عاميّة)

لكتفيها، تعود به، بينما تنتظر الأعدال، في الحقل، عمّي، ريثما يوافي في موعد محدّد، ينقل الأعدال على بغله.

في الربيع تتضاعف الأشغال التي كانت تنهض بها امرأة عمّي، لا سيما في شهري نيسان وأيّار، في موسم تربية دود الحرير. فمن إعداد أطباق الزبل المخلوط بالقشّ، وتجفيفها، إلى تفقيس البذور، ونقل اليرقات إلى الأطباق لإطعامها بهشيم أوراق التوت الطريّة، ثمّ ملاحقتها بالطعام، صبحاً ومساءً، حتّى تبلغ مرحلة صيامها، فانتشارها على الشيح، وحياكة الشرانق، فقطافها ونقلها إلى المخانق...

وللصيف، أيضاً، أشغاله الكثيرة، وهي مخصوصة بالنساء فلا تليق بالرجال الذين هم، حقاً، رجال، وإلّا أشارت إليهم الأصابع، لأن جلّ هذه الأشغال تتعلّق بإعداد مؤونة الشتاء: قطاف التين، «وسطحه»* ليجفّف، ثمّ طبخه وحفظه. غربلة القمح وسلقه وتنقِيَته وجرشه ليصير «برغلاً»*. فرك الكشك وتشميسه. مخض اللبن، وفصل الزبدة، واستخلاص القريش، ثمّ «دعكرته»* شنكليشاً. إعداد القديد والدبس والمربّى والمكبوسات على

* تشقيف التين وبسطه على أطباق. (سريانيّة)

* جريش خشن من الحنطة المسلوقة. (تركيّة)

* دعك = دلك. كرة: الشكل المعروف. أي فرك القريشة وتحويلها إلى كرات. (عاميّة)

أنواعها... وغير ذلك كثير مما تقوم به النساء. أما إذا كانت إحداهنّ قويّة، طيّبة الارادة، ذات عزم، كامرأة عمّي «غالية»؛ وإذا كان رجلها خاملاً، ابن ستّين، كعمّي يوسف، فإن أشغالاً رجّالية كثيرة تضاف إلى تبعات النساء: كجمع الزيتون ونقله إلى المعاصر، وكقطف الدخان، وشكّه في الخيوط، واصطفاء أجوده «وكتّه»* مؤونة لربّ البيت. وكنقل الزبل إلى البستان القريب لتخصيبه، وكجلب الماء من الساقية لشرب العائلة وحيوانها، وكنقل القمح إلى الطاحون، على النهر، ثم ردّه طحيناً زكي الرائحة...

كان عمّي يوسف يستيقظ عندما يبدأ إبريق الزوفى بنشر شذاه المنعش في أنحاء المنزل. ينفض عنه اللحاف، يزحل على قاعدته متحرّكاً قليلاً ذات اليمين، وذات اليسار، صوب الموقد، يمدّ قدميه إلى النار فارشاً يديه فوق ركبتيه، آخذاً «دَفْوَةً»* منشّطة. ثم يمدّ يداً إلى الإبريق، يسكب من الزوفى كؤوساً مترعات، مشبعات بالسكر، يكرعها متلذّذاً بطعمها، حتى إذا ما ارتوى ونشط، يقف متثائباً، ويطلّ من الباب، فإذا السماء صحو، عمد إلى البغل، يشدّ عليه ويمضي إلى الغابة، تاركاً وراءه كلّ شيء على ما كان، إذ ليس الترتيب من شيم الرجال، ليعود، عند الظهيرة، غانماً، بحملٍ من الحطب، وكأنه قد وفى قسطه للعلى. ويرتاح قليلاً، قبل أن يتناول

* هرمه. قطعه قطعاً صغيرة. (سريانيّة) * من الدفء.

غداءه، صحناً مما طبخت ربّة البيت، يقوم بعده ليلبس ثياب الخروج، ويمضي، يقصد مريضاً، يزور نسيباً، يلتقي صديقاً أو يجتمع بأصحاب، يتبادل معهم الأحاديث التي لا تتعدّى حدود المشاع والبيادر والساقية، ثم يرجع إلى البيت وقد هبط الظلام.

ولا يقتصر دأب عمّي على هذا النشاط وحسب، بل هو يساعد امرأة عمّي في كثير من الأعمال: يأتي بالتبن من على البيدر، بعد موسم الحصاد، يحصره في المتبن ويرصّه. يجلب الماء بالسريجة على ظهر البغل في موسم سلق البرغل، ويقوم على إيقاد النار، ويعطي التعليمات الصائبة في تدبير السليق. يفرش السماد في كرم الزيتون، ويفلح أرضه على البغل إن لم يتبرّع له جار فلّاح بيوم فلاحة، كما ينقّي شجرات الزيتون ويقشّر الحفافي. «يحدل» السطح في أحايين كثيرة. يحمل الأحذية إلى الإسكافيّ لإصلاحها، ويأتي بالأغراض من السوق. ينجّر عصاً للمعول، ويسنّ الفأس والمنجل، يصلح بردعة البغل، ويدقّ مسامير في باب أو شبّاك.

ولم يكن عمّي، في مهنته الأصليّة، أي الاتّجار بالأخشاب والقطران، تاجراً لامعاً، لاسيّما في آخر أيام هذه التجارة التي كان لها شأنها عندما كان في عزّ شبابه، وضعفت بضعف ازدهار القطعان في البادية. أمّا سبب خمول عمّي المهني فضعف الهمّة في نفسه وجسده، فهو كان ضئيل القامة، بطيء الحركة، هادئ

الطبع، خامد الحماسة، ميّالاً إلى التعاطي الاجتماعيّ وإلى التمتّع بالجلسات الممتدّة حول الموقد أو في الظلال، مع الأصحاب والأنسباء، يتسامرون ويدخّنون التبغ البلدي، أو يتندّرون ضاحكين، أو يتبادلون التشكّي من ظلم الزمان...

وهو لو اجتهد في مهنته لأيسر كما زملائه. كان إذا تواعد معهم على سفرة صوب البادية، يمرّون به فجراً، فيلفونه نائماً! يوقظونه، فيفتح الباب، ويقرّب سراجاً ضعيفاً خارجه، فإذا انطفأ، يعلن أنّ اليوم عاصف، وأنّ مزاجه لا يحتمل سفرة مهولة. وقد يتعلّل أيام الصحو بانشغالٍ مفاجئ، قائلاً: اسمحوا لي، «ماني رايح اليوم...»

هكذا ثقلت التبعات على كتفيّ امرأة عمّي، واشتدّت النأمة في فمها، وكثر التذمّر على لسانها، لكن من غير أن تقلّل من احترام زوجها، مباشرة، وبقيت، دائماً، تطمع في كسب رضاه...

وذات آذار، أسبوع منه لا ينسى!...

في بعض السنين يأتي ذلك الآذار أشدَّ كفراً ولؤماً، يصبّ أذاه على ساكني الجبال صبّاً، وتسحق أذيّته، تكاد، أهل الطروش منهم، لاسيّما في «المستقرضات»*.

* أيام معلومات أواخر شباط وأوائل آذار يعتقد العامة ان الشهرين، بها، يتقارضان أقسى ما عندهما من الايام العواصف.

في أواخر شباط، عادةً، تشحّ المؤونة، ويشرف خزين الطروش على النفاذ، لاسيّما إذا اهتاج الكانونان و«لبط»* شباط، إذ تنحبس الماشية، فيقلّ خروجها إلى المراعي، فيهلك الخزين مهما اكتنز!...

آذارنا ذلك واحد منها! أسبوعه الأخير استمرّ مدلهمّا، عاصفاً، مثلجاً، ممطراً، تتحدّر سيوله هادرةً، وتغمر ثلوجه السفوح ساطعة، وتقصف رعوده مهدّدة، وتصفر رياحه منذرة... إنحبست الأبقار والأطيار والناس، ونفد التبن، بصورة خاصّة، وقلّت حيلة الإنسان... إلى أن حلّ اليوم الأخير من الأسبوع، فحصل بعض انفراج، لعلّه خادع، ولعلّه استراحة المحارب ريثما يدخل نيسان بربيع سخيّ. فاستبشرت الجارات، المنكوبات بنفاد الخزين، خيراً، وتنادين ليخرجن إلى الغابة لجلب «القصيلة»*، تعويضاً عن التبن.

بعضهنّ استنفرن أزواجاً ذوي همّة، وبعضٌ استنهضن أصهاراً شبّاناً ليرافقوهنّ، فالغابات غادرات، لا يؤمن جانبهنّ!... إمرأة عمّي خرجت معهم مصحوبة بحبلها وهمّتها الجبّارة، وأوصت، قبل أن تخرج، بلهجة حازمة: «لا تنسوا حدالة السطح»؛ من غير أن توجّه أمراً إلى شخص معيّن؛ لكن من له أذنان سامعتان

* ضرب بقوائمه. (سريانيّة)

* أطراف أغصان طريئة لبعض أنواع الشجر يرغبه الحيوان.

فليسمع... سمع الكلام عمّي الجالس، كعادته، فارشاً يديه فوق ركبتيه، أمام لهب الموقد، إذ كانت له، هذه الأيام، أذنان تصغيان، وجبين متّضع، ووجنتان تخجلان، وفم مطبق!... لكنّه بقي كأنّه يكابر، بعض مكابرة، وليس لأكثر من مقدار مسيرة ميلين، ريثما ابتعدت زوجته، بحيث لا تعود تسمع صرير القوس في ثقبي «المِحْدلة»، ولئلّا يبدو وكأنه صدع للأمر...

وابتعد موكب المجاهدين، فقام عمّي، «تجزّم»، وحمل القوس، وصعد إلى السطح؛ يروح ويجيء بالمِحدلة، بعزم الشباب، يرصّ التراب، يدلّكه بقوّة، فيرتجّ السطح تحته، غير عابئ بما يتساقط من تراب السقف على رؤوس الجالسين؛ ثم نزل إلى قواعده، قرب الموقد، يترقب، قلقاً، عودة الزوجة المناضلة في وجه أزمة حملتها عاصفة لا ترحم.

وعصفت الريح، وثقلت السماء بغيومها السوداء، وأبرقت وأرعدت، وانهمر المطر سيلاً لا ينقطع. وعلا الوجوم وجوه العائلة المتحلّقة حول الموقد، لا سيّما عمّي، فما كان يُسمع إلا همهمة اللهب وتنهّدات الصدور المثقلة بالتوجّس، وتمتمات الشفاه بكلمة واحدة تتردّد ساخنة: يا ربّ!...

ومرّت الظهر، وساعة أخرى بعدها، والعاصفة لا تزال على أشدّها، فصار عمّي يزيح بجسمه ذات اليمين وذات اليسار،

مراوحاً مكانه كأسير مقيّد بأصفاده، يتشدّق مرطّباً فمه الذي تحرقه جمرة الترقّب.

وسمع حسّ حركة في الخارج، وصوت سقطة حمل من الغصون على حائط البستان، فهبّت العائلة إلى الباب، ما عدا عمّي الذي نزلت عليه الطمأنينة المرتقبة، فتنهّد عميقاً، مرتاحاً؛ تراجع قليلاً عن النار بعد أن عزّزها بحطبات يابسات، هيأهنّ خصّيصاً، ثم تنحّى موسّعاً...

وصرخ من في الباب: رجعوا، رجعوا...

تراكضت البنات ينبشنَ قفّة الثياب والصرر، يأخذنّ منها السميك النظيف، والمناشف، بينما حملت اثنتان منهنّ حرام الصوف، كلّ واحدةٍ بطرف، جاعلتين منه حجاباً يدرأ الأعين.

ورأيت امرأة عمّي «غالية»، بهيئة بطل عائد من المعركة مثخناً بالجراح، لكن منتصراً، تدخل حافية، وقد خلعت نعليها الموحلين في الباب، رافعة ذراعيها قليلاً أمامها، حانية كفّيها بأصابع كمّشها نقيع المطر المتقطّر. ثيابها «ميّة عين»، يتحلّب على قدميها، من ذيل فستانها «داير مندار»، خيوط الماء، ومن شعرها المبلول خيوط أخرى تسيل على كتفين مُقطّبَيْن، وعلى صدر مقوّس.

تقدّمت خطوة، خطوة، إلى ما وراء الحجاب المنصوب، مستسلمة بين أيدي البنات اللواتي رُحنَ ينزعْنَ الثياب المنقوعة، يفركنَ، يدلّكنَ، يجفّفنَ ويبعثنَ الدم في الجسد المنهك ويكسينه ناشف الثياب.

وعمّي، دائماً على صمته المطمئنّ، ينظر ساهماً إلى النار المزغردة، حتى إذا ما تجهّزت امرأة عمّي على أحسن ما يمكن، واتّجهت إلى مكانها، أمام النار، تحرّك بإيماءة من يدعو صديقاً ليجلس قربه، فجلست محتبية، فارشة يديها أمام اللهب، ومن منخاريها تتحدّر قطرات صافيات، حول فمها، تمسحها بكفّيها.

مرّت دقائق، حسبتها طويلة، قبل أن ينظر عمّي إلى زوجته بعينين رطّبهما عرفان الجميل، وقال بصوت مخنوق: «اللّه يعطيك العافية»... أمام دهشتي، رفعت امرأة عمّي يدها مفتوحة، ضمّتها إلى صدرها، أحنت رأسها قليلاً، وأجابت بصوت وديع: «اللّه يعافيك!...»

ساعتئذٍ أدركت موقناً، أنا الطفل، أنّه إذا كان الرجل رأس المرأة، حقّاً، وكما يقول الكلام المأثور، وباعتراف امرأة عمّي الضمني، كما شاهدت، فإن المرأة هي باقي الكيان الإنسانيّ، وفيه القلب، فيبقى الرجل من دونها رأساً مقطوعاً.

حاكم الماء

رزق موريّا! هكذا، شهرته أمّه...

عاش رزق موريّا هذا، منذ طفولته، يتيم الأب. والعادة الدارجة، في بلدنا، أن يُنسب الولد إلى أمّه في حالين: إذا كانت شخصيّة الأمّ طاغية على شخصيّة الأب، أو إذا مات الأب مخلّفاً طفلاً صغيراً. وإذا فاتني أن أحسب الحال الثالثة، فلأنّها نادرة، وهي، لا سمح اللّه، إذا كان الوالد غير معروف، أو معروفاً غير مذكور، إلا إذا بلغت النكاية مبلغاً، فيذكر! ساعتئذٍ، العياذ باللّه... لكن موريّا، وإنّي لأشهد بالحقّ، كانت طاهرة الذيل، عطوفاً، مجاهدة، ربّت وحيدها على الاستقامة، وعلّمته عند الرهبان حتى استوفى علوم زمانه جميعاً.

وأزيد لأقول: لو أنصف الناس، عندنا، لكانوا سمّوا رزق موريّا رزق «السِكْر»؛ فهو، منذ درج، وأكاد أقول: منذ حبا، عاش على ساقية الماء، البعيدة مرمى حجر عن منزله الوالديّ. هذه الساقية تسمّى «السِكر الطويل»، لطول المجرى؛ فهي تنبع من خلف الجبل البعيد، تلتفّ حوله، وتنعطف من وادٍ إلى واد، فتسقي، في طريقها الطويل هذا، بعد سدّ النهر، صيفاً، حقولاً وبساتين كثيرة. إنها الشريان الرئيسيّ الذي يمدّ البلدة بالحياة. أمّا، في الشتاء، عندما تنحدر السيول وتفيض الوديان، فينهدم السدّ ويجري النهر الذي يشقّ البلدة ضفّتين، مرغياً، مزبداً، متوعّداً، فينام الناس على وعيده الذي قلّما أنفذه.

والطفل رزق اللّه، جار السِكر الطويل، كان يتدحرج، منذ أن تفتح أمّه الباب، صباحاً، صوب السكر؛ فأولع به، وصار عالمه المعشوق. والأطفال يعشقون الماء!... هنا، على الضفاف، يتجمّع الأتراب، واحداً بعد واحد. يجلسون على حافة السِكر، يغطّسون أرجلهم الحافية، يحرّكون بها الماء ويرفسونه. أو ينتشرون تحت الظلال القريبة، يجمعون التراب، يجبلون الطين، يبنون المحاقن المتتابعة، وينقلون إليها الماء بالتنك العتيق، وبالحفنات، وحتّى بالأفواه المنفوخة، فتفيض المحاقن «وتنفلش»* السدود، فيجتاح بعضها بعضاً!... ويقهقه الأطفال.

وقد يعمد هؤلاء الأطفال إلى رمي بعضهم البعض بالماء، فيبتلّون وينشفون، ثمّ يبتلّون وينشفون... يعركون في الوحل فتّتسخ الثياب ولا يعبؤون. يحفنون من السكر ويرمون الماء في وجه الشمس، فينفرط حبّاتٍ تشعّ بالصفاء وبالألوان. إنّها عقودهم اللؤلؤيّة تغنيهم وتسعدهم...

وفي موسم الثمار يترصّد الاطفال المجرى: تفّاح أحمر فوّاح، وإجاص ذهبيّ لذيذ، وخوخ أحمر وأصفر!... ثمار، ثمار تتساقط عن أمّاتها، فيحمل المجرى بعضها إلى أيدي الأطفال التي تتلقّفه مغسولاً نديّاً، يثير تدافعاً وعراكاً، فيغنم الكبار ويبكي الصغار؛

* تنفتح وتتبعثر. (سريانيّة)

ويتوسّل «الفَجعان»: «اللّه يخلّيك، كدّشني!» فيمدّ يده، من الغانمين، من رقّ قلبه ورهف إحساسه، فيكدّش الصغير كَدْشة، يحاول هذا، بفمه الصغير أن يكبّرها قدر ما يستطيع، ويروح يمضغ متلذّذاً، فينقطع دمعه وتبتسم عيناه... وكثيراً ما كان يحتدم العراك بين الأطفال، فتتّسع دائرته ليشمل الأمّهات، وحتى الآباء أحياناً... لكنه عراك سليم العواقب، لا يخلّف ضغائن. وكثيراً ما حسم العراك صوت الشاوي* إذا ما صدف أن مرّ، فيذعر الأولاد ويتفرّقون، ويتوارى الأهل داخل الدور، تجنّباً لتكبير الشرّ، وهم يسمعون شتائمه البذيئة تنصبّ في آذانهم، فيبتسمون...

وشبّ رزق اللّه مهيب الطلعة: وجه رفيع، أسمر، برّاق العينين، مفتول الشاربين، أقنى الأنف كباشق، ضئيل القامة، نزق، متوتّر الحركات. يلبس الشروال ويحطّ الكوفيّة والعقال، فبدا مكتمل الرجولة... وتحقّق حلمه: صار سيّد السكر، صار «الشاوي»! وها هي المجرفة تتآخى مع كتفه، فصار ينتهر ولا يُنتهر... وسرعان ما امتلك رزق اللّه سرَّ المصلحة لطول مصاحبته للسكر، ولقضيّة السقاية التي هي قضيّة القضايا في القرى، يوم كانت الزراعة قوام الحياة الوحيد!

ورزق موريّا يعرف منسوب الماء في السكر، ويحسبه بالقطرات، إن في سنيّ الخزين وإن في سنوات الشحّ. يعرف

* منظّم ماء الري. (تركيّة)

أصحاب الحقوق، وعدد «المصاريع»* العائدة لكل منهم، يعرف عدد أجزاء المصراع العائدة لأصحاب القطع الصغيرة من الأرض. يعرف الأراضي و«مساكيرها»*، ما يوفّر ماءً منها وما يهدر منه، كيف يجري الماء في أنحاء الأرض بسهولة ويطال كلّ أجزائها، فتأخذ كفايتها دون تبذير. ولطالما سهر الليالي على يد صاحب الدّور، يراقبه ويحثّه. ولطالما نام على لحم الأرض، يسند رأسه بحجر، يشخر من تعب؛ حتى يشعر بالماء تحته، فيهبّ مسرعاً ليصرفه إلى غير جهة. لا يمكن لأحد أن يسرق قطرة، وإذا حصل؟ لا يشكوه، لا يحرّر ضبطاً، بل توبيخ وتعنيف، وأحياناً: شتل بعض الزروع ورميها، بحسب الجرم... حتى «المَلّايات»، عند العصر، كنَّ يَهبنه، لا سيّما في مواسم الشحّ، فكنّ يملأن جرارهنّ بالطاسة سكباً رفيقاً، حتّى لا تسرح قطرة واحدة خارج فم الجرّة؛ فيصبرن على بعضهنّ، ولا يزدحمن على المجرى، بل، حتى، يقتصدن في بيوتهنّ، فلا يسرفن في مصروف الماء حتّى لا تتكرّر روحاتهنّ على طريق «المملى»؛ فـ «الشاوي»، في سنوات الشحّ، لا ينطاق!

هكذا اكتسب رزق اللّه ثقة الجميع، فلم تكن الخلافات، على

* الليل مصراع والنهار مصراع. المدّة التي تستغرقها الأرض لترتوي. اصطلاح ريفي.

* المسكور: فتحة في الساقية المشتركة، منه يحوّل الماء إلى الأراضي. (سريانيّة)

كثرتها عند أهل الريف، لتطاول موقعه. فقط، في مواسم الانتخابات، إذ تحتدم الحزازات وتشتدّ النكايات، تهتزّ ثقة الحزب المناوئ لحزبه به؛ يعلو اللّغط حوله وتكثر الاتهامات، لا سيما إذا ما تصاحبت مواسم السياسة مع مواسم الجفاف، وكثيراً ما تتصاحبان!... لكن رزق اللّه، مع تشدّده في حزبيّته، وإخلاصه لزعيم حزبه، لم يكن متحيّزاً في موضوع الحقوق، فلم يكن يبحبح أحداً على حساب أحد، أو يطفّف من حقّ أحد؛ لذلك سرعان ما كان يذهب الاحتقان بذهاب الانتخاب، وتعود المياه إلى مجاريها! نقطة ضعف وحيدة كانت تحسب عليه باستمرار! هي تساهله مع الأطفال اللاعبين على ضفاف المجرى: كان يميل عن ملاعبهم، ليلعبوا على راحتهم؛ حتى لو زادوا من شقاوتهم وعاثوا في المجرى الترابيّ، فنزّ بعض الماء وتحلّب! كان يقبل صارخاً من بعيد، وكأنما يرسل إشارة، فيتوارى الأطفال، فيسرع ويصلح ما تشعّث، ويرسل تهديدات صاخبة كرعد خلّب، ثم ينصرف باسماً، مختلساً، من وراء كتفه، نظرات إلى الاطفال، وقد عادوا، ملؤها الرضى! ولم تكن تلك المناورات لتخفى على الأطفال، لأنهم، بشفافيّة أحاسيسهم يعرفون أن يميّزوا بين العدوّ والصديق.

كان ذلك الزمان هنيئاً...

وجاء زمن رديء، أهمل الناس فيه الزراعة، ولحقوا الوظائف

وهجروا البلدة... عائلة رزق موريّا كبرت، ولم تعد مهنة «الشاويّة» تقوم بها! رزق اللّه ينظر إلى الحقول البور وفي عينيه دمعة محروقة، وفي قلبه جمرة لا يطفئها ماء السكر في سنيه الغامرة. يتأمّل في وضع عائلته فتتفتّت عزيمته الصوّان. ما العمل؟ الهجرة مثل من هاجر؟ أيترك الماء والحقول، والخضرة والظلال، وملاعب الصبا ومرابع العزّ؟ أيبيع أرض الآباء والأجداد ثمناً «للناولون»؟* أيهجر إمارته؟...

ما أمرَّ!

لكن؟...

قلّع رزق اللّه. أي هاجر بالعائلة جميعها، وإلى استراليا؛ باع أرض الآباء والأجداد، ولم يُبق إلّا على البيت العتيق، كبقيّة أمل! كموضوع قد تحصل فيه، يوماً ما معجزة القيامة!

ربّما، ربّما؟

نعم. سافر رزق اللّه بقلب مقطّع، فلذة منه تركها في زاوية من البيت العتيق...

لم يقلَّ نجاح رزق اللّه، في أستراليا، عن نجاحه في إدارة ماء السِكْر. كبر الأبناء والبنات وتزوّجوا. على أنّه حرص على تزويج الصبيان من أُستراليات لبنانيات، ليبقى الحنين إلى الوطن، في

* الناولون: أجرة المركب. (يونانيّة)

ظنّه، دائم الاشتعال. عدا الابن الأصغر، فقد نذر أن يزوّجه في لبنان، وفي كنيسة الرعية، بالذّات؛ لذلك سمّاه عائداً. قال له: إسبقني يا عائد، اسبقني إلى لبنان. تنزل في بيت خالك. تزور الأنسباء وتختار من بناتهم عروساً. يحبّها قلبك. كلّهن جميلات، كلّهن فاضلات، كلّهن صاحبات بيوت. أغمض عينيك ونقّ عروساً لك منهنّ. وعندما يقرّ قرارك، أرسل لي إشارة صغيرة، أكن عندك. الإكليل في كنيسة «السيّدة». العرس ولا عرس ابن السلطان. أربعون ليلة: عتابا وميجنا و«مِجْوِز» ودبكة وطبل و«مازة» وعرق... ثم شهر عسل في أنحاء لبنان، ونعود. تيسّر الآن على بركة اللّه. لا تطوّل زبيبتك، يا ابني. إختر بسرعة. غمّض عينيك، قلت لك: وعلى مسؤوليّتي...

وجاء عائد إلى لبنان، ونزل عند الأنسباء على الرحب والسعة. إختار جميلة من الجميلات، أحبّها قلبه. أرسل الاشارة إلى والده الذي وصل مساء السبت التالي. دخل إلى بيت أنسبائه، فجأة، فكانت الحفاوة به بالغة، والفرحة لا توصف!

صباح الأحد، بكّر رزق اللّه في مغادرة الفراش. سيفاجيء من في الكنيسة بحضوره، لا سيما عندما سيباشر في خدمة القدّاس: «شَبَحو المُريو كُلخُن عنيد»* ... بصوته الشجيّ الفخم، كأيّام زمان.

* سبّحوا الرب يا جميع الشعوب... بدء صلاة القدّاس الماروني بالسريانيّة.

وسينتشي بالدهشة التي سيحدثها في نفوسهم، وبالفرحة تشرق على وجوههم!

عندما وصل إلى السِكر، اقشعرّ بدنه واضطرب قلبه واشتعل رأسه! من؟ رأى رجلاً يخبّ بجزمة «الكاوتشوك» السوداء. رجلاً يلبس الشروال البلدي... عرفه للتوّ. تمهّل، وتنحنح ليثير انتباهه. لكنّ يوسف شاهين، «الشاوي»، لم يعبأ به ولم يعرفه. وكيف يعرف هذا الغريب، البدين، الأجلح، الأبيض الوجه، الورديّ الوجنتين. وبلباس إفرنجي؟!...

ومع ذلك مرّت في خاطره، مسرعة، صور مشوّشه، أهملها. قال في سرّه: ما بال هذا الغريب مسمّراً في مكانه؟ يحدّق بي! لمّا لم يأته الجواب اليقين، حرّك رجليه مسرعاً، مفكّراً: «يصطفل*...» لكن أحاسيسه كانت قد توتّرت وتنبّهت!...

عندئذ صرخ رزق اللّه بصوت الشباب الخالي، وقد استعاده من زاوية البيت العتيق:

– «يوسف. المَيْ، اليوم، مع مين؟»

فجمد «الشاوي» مكانه كالمصعوق... وبلمح البرق عادت ذاكرته ثلاثين سنة إلى الوراء! ورنّ الصوت الذي عرفه جيّداً،

* عاميّة منحوتة من: اصطفِ لك، أي إختر ما تشاء من سلوك.

الصوت الذي كان أليفاً، رنّ في أذنه رنيناً رجّ أعماقه! إنّه صوت رفيقه القديم، صوت «حاكم الماء...»

فصرخ بالنبرة ذاتها:

– مع رزق موريّا...

وخبط «الشاوي» المجرفة في الأرض، وعاد فاتحاً ذراعين واسعتين وسع ثلاثين سنة، وارتمى على الصديق القديم غير عابئ بالوحول على ثيابه، وبالعرق الحامض في جسده.

تعانق الرجلان طويلاً طويلاً... كان رزق اللّه كلّما قبّل صديقه قبلة اشتمّ رائحة طيّبة لم يشمّها من زمان؛ فيعود إلى تقبيله واحتضانه، ففي ذلك الشميم رائحة الطيّون والرَزّين والحَبَق والنَعْنَعيّة والقصْعين وحتّى الدِفلى وغبار الدُلب...

تلك الروائح التي طالما أحبّها، وطالما اشتهاها في غربته!

وعاد رزق اللّه إلى بيت أنسبائه من غير أن «يقدّس» ذلك الأحد الأوّل لوصوله. ومع ذلك شعر بالراحة والغبطة، فكأنّه «قدّس» ملء نهاره...

لما رآه أنسباؤه ملطّخاً بالوحل، صرخوا:

– رزق اللّه! يخرب «كوشتك»![*] «أيش عامل بحالك؟ من أول يوم رجعت عَ الشاويّة؟...»

* بدّد اللّه ما جمعت من مال وغيره. أو خرب اللّه عائلتك وجماعتك. (سريانيّة)

وضحك رزق اللّه ملء فمه، ومن كلّ قلبه...

شهر واحد قضاه رزق اللّه في بلده. سوّى شؤونه، وزوّج ولده كما أحبّ ووعد، وسفّره مع عروسه إلى استراليا، واعداً أن يلحق به بعد أسبوع...

لكنّه لم يلحق به أبداً! رفض قلبه أن يبرح جنّته الضائعة، بعد أن استعادها، فتوقّف بعد سفر عائد وعروسه بيومين!

كان وداع رزق اللّه إلى مثواه الأخير مؤثّراً... ودفن في مدافن الأجداد، تحت شجرات العفص العتيقة، حيث يجري ماء السكر حيناً بعد حين، مرنّماً أغنية الخصب للبساتين التي يجري إليها، بينما حاكم الماء القديم يرقد تحت تراب وطنه قرير العين.

بطّيخة آدم

في ذلك الزمان!... لم نكن لنذوقَ البطّيخ إلّا مرّة واحدة في العام، وفي أواسط آب، تماماً...

في الخامس عشر من هذا الشهر، عيد انتقال السيّدة العذراء، والذي كان عيداً عامّاً في منطقتنا، يحتفل به الناس من كلّ الطوائف، كانت أكوام البطّيخ تعرض في باحات الكنيسة الواسعة. وكان المؤمنون يتوافدون من جميع أنحاء المنطقة؛ بعضهم يسمعون القداديس، وبعضهم يتماسكون في حلقات الدبكة، وبعض يتبضّعون... بينما، الاطفال المزدهون بثيابهم الجديدة، الملوّنه؛ كانوا يركبون المرجوحة، ويأكلون «القرمشلية» و«النمّوره»، ويزمّرون بزماميرهم البرّاقة...

وينتهي المهرجان، فيعود المحتفلون وهم يحملون، غانمين، كلّ منهم، بين يديه، بطّيخة هي عنوان العيد وعلامته. ومن لم يعد ببطيخة، فإنْ صلّى ورقص وتفرّج، فلا يعتبر أن قد عيّد!

رؤوس كبيرة وأخرى صغيرة. بطّيخ أحمر وبطّيخ أصفر. بطّيخ أملس، أزرق القشر، أحمر القلب. وبطّيخ خشن الملمس، أصفر كالعنبر، ولا يشبه بطّيخ هذه الايام: إنه مضلّع، مخدّد، كبير مستدير، تعلن رائحته الزكيّة حضوره عن بعد، لكنّه، اليوم، اختفى من الأسواق، وحلّ مكانه كلّ هجين جديد، لا أصل له ولا فصل.

والبطّيخ، على أنواعه، طيّب، مشتهى. كان يأتينا من نواحي الشام: من حمص وحماه وسراقب... وأشهره بطّيخ الرَسْتن.

كانت تنقله قوافل الجمال وعربات الخيل قبل أن نقلته صناديق السيّارات. وعلى رنين جلاجل الجمال الحزين، كان يتوافد الأولاد إلى ساحة البلدة، حيث تنوخ القوافل، وتنزل «الأخياش»، ويكوّم البطّيخ. أما رنين الجلاجل، فلا أزال، إلى اليوم، أسمع صداه في موّالٍ يتردّد في أعماق ذاكرتي، ولطالما فاجأت جدّتي تغنّيه بصوتها المخنوق، مرسلة دمعها تحناناً إلى أبنائها الغائبين في المهاجر البعيدة:

إجمالْ مْحمَّلي وجراسْهَا بِتعْنّ
أيامْ الماضي عَ البال بِتعنّ
لَ هْشلْ عَ بلادِهُنْ ادّرَوَشْ وْبْعِنّ
وَسأل عَ مْطارح ألأحباب

وفي الساحة، حول المبرك، يتفرّق الاطفال زمراً:

الصغار، برهبة وإعجاب، يتأمّلون الحيوانات الضخمة التي **تشمخ برؤوسها، وهي راكعة**، تحرّكها بأبّهة، تعلك بأفكاكها، وتنظر بعيونها الشفّافة بالغباء. والصبيان يجوسون حول أكوام البطّيخ، ينتظرون غفلة من بائع، علّ أجسرهم يهرب ببطّيخة! أمّا الغُلْمان فيحتكّون بالباعة، يساومونهم، ثم ينتشرون في أنحاء البلدة، في المقاصل وخلف البيوت، ثم يعودون حاملين الصفّ* يسرقونه،

* الصفّة خشبة طويلة مستقيمة كانت تصفّ على منصّات دود الحرير لتحمل الأطباق والقزّ.

أينما طالته أيديهم، حتى من بيوتهم، ويقايضونه بالبطّيخ، مع هؤلاء الجمّالة، من أهل البادية، حيث تحتاجه الخيم بكثرة.

والبطّيخ مشتهى لأنه لم يكن يزرع عندنا. وإذا زرع فقلّما يجود. وحتى لو جاد يتأخّر نضجه حتّى التشارين، فيتشقّق قشره ويفلع. وعلى كلّ حال، البطّيخ رفاهية وليس حاجة، فلا يخزّن ليغني عن مؤونه، ولا يصلح طعاماً لدابّة، فعلام يهتمّون لزراعته؟... وشدّ ما كان يشتهيه الرعاة وفلّاحو الجُرد: أولئك إذا احرورى الصيف، يرودون بقطعانهم الهضاب والجبال وأطراف الغابات، وقلّما يؤمّون العيد. والفلّاحون في حقولهم البعيدة، أشغالهم لا تسمح لهم باستقبال أعياد الصيف، والاحتفال بها. وكلاهما إذا أكل البطّيخ، في بعض السنين، فيذوقه ولا يرتوي.

من المعّازين المشهورين، في بلادنا، حتّي الزيتون. رجل مَهيب، في منتصف العمر. ربعة، تتشبّث قامته بالأرض. مجدول العضل، موفور الصحة، إذا نقرت وجنته الورديّة نفر منها الدمّ. ذو عزم وجسارة، يُحكى عن «زلاقته»* وجرأته حكايات كالأساطير. إذا نزل في مرعى تفاداه الرعيان، فلا ينافسونه. إذا ضاعت له عنزة تعاد. يَسرق ولا يُسرق. في الليالي المقمرة أو السوداء، لا فرق عنده، يغزو زرائب «الدشمان»* ، ويسحب أفضل التيوس في

* يتجاوز المآزق بسهولة. (عاميّة)

* الأخصام. (تركيّة)

القطيع، متجاوزاً الرجال والكلاب ببراعة غريبة. حتّى العشائر، في أعالي الجبال، تخشاه كجنّيّ وتستعيذُ باللّه منه. جميع الناس، هنا، يعرفون ما فعل ذات ليلة: كان كامنا يراقب ويسمع ما يدور في حظيرة إحدى العشائر. عاندت عنزة صاحبتها عند الحلب، فدعت عليها قائلة: «يبعتلك حتّي!...» فصمّم حتّي ألّا يسرق إلّا العنيدة تلك!... وكان أن وجدت الراعية، صباح اليوم التالي، أنّ دعوتها قد استجيبت!.

وحتّي لا يمشي إلا مسلّحاً بغدّارة، يخفيها تحت مدْرعة، يرتديها صيفاً شتاء، متحسّباً غدر «الجندرمة»* واللصوص والذئاب، وما قد تخبّئ الغابات من مفاجآت!.

هذا العام، نصب حتّي بلاسه في «جورة الخيمة»، متوسّطاً بين أطراف الحقول المزروعة والغابة؛ يطرق قطيعه هذه وتلك، حسب الرغبة. يشاركه السُكْنَى، في مصيفه، زوجه، ملوك، وولداه اليافعان. أمّا الصغار، فعند جدّتهم، في الضيعة.

ملوك، زوج حتّي، من أهل اللّه، كما يقولون، أي ساذجة، وعلى الفطرة. إنّها نقيّة، تربّت في بيت أهلها على مخافة اللّه وحفظ الوصايا، فنشأت مستقيمة، وعلى خلق متين. تختلف عن حتّي، في الأخلاق والطباع، كلّ الاختلاف؛ ولا تقربه إلّا في

* رجال الدرك. (فرنسيّة)

صلابة البدن، واحتمال المشقّة والخشونة. انهما، في هذا، من معدن واحد، بل، ربّما بزّهته في قوّة الاحتمال. ولم تكن ملوك لترضى عن سيرورة زوجها، وعن زوغانه عن طريق الحقّ! وأكثر ما كانت تكره فيه استهتاره بأرزاق الناس. لكنها زوج خضوع، حفظت ما قرأ الكاهن في الكتاب، عندما كلّلها:

«أيّتها النساء اخضعن لأزواجكنّ... وكما تخضع الكنيسة للمسيح، فلتخضع النساء لأزواجهنّ في كلّ شيء». لكن ملوك، عارفة حدود واجبها، لم تكن تخضع لحتّي إلاّ في ما يرضي الربّ... فوق ذلك، كانت تعترض بقوّة على أفعاله الشنيعة، تحاول ثنيه عن غِيِّه، فإذا لم تفلح ، سكتت على مضض. تكتم همّها، فما باليد حيلة! حتّي متهوّر عنيد، إذا همّ فعل، وغالباً ما ينوي ويفعل من غير أن يفصح... إذا عيّروها به، وغالباً ما يعيّرونها، تجيب بالأمثال: لا تدينوا لئلّا تدانوا... هكذا تنفي عن نفسها المسؤوليّة.

وتمضي الحياة... وتمضي ملوك تعمل واجباتها اليوميّة بهمّة ونشاط: تحلب العنزات، وتمشي مسافة ساعة وأكثر، حاملة على رأسها طنجرة الحليب الكبيرة، وباليد سطل، لتكيل مع زميلاتها في الجوار... ثمّ، إذ تعود، تكنس البعر وتجمعه في زاوية الصيرة. ثمّ، إلى الغابة، تجمع أغصاناً طريئة من السنديان طعاماً للجداء والمقصّر من المعزى. ثمّ إلى الكوخ لإعداد طعام العائلة وزوّادة

حتّي، ثم صنع الجبن والسمن... وفوق كلّ هذا، من مسؤوليّتها أن تنزل إلى البلدة، مرّة في الأسبوع، لتحضّر ما نقص من حاجيات العيش في المصيف...، هكذا تمضي الحياة، في الجرد، هانئة سعيدة، رغم شظف العيش وقساوة العمل، لا يعكّر صفاءها إلا تمرّد حتّي، بين الحين والحين، على مبادئ الشرف والأخلاق...

آخر مرّة نزلت ملوك إلى البلدة، كان قبل عيد السيّدة بيوم واحد. القادمون للاحتفال كثيرون كثيرون يركبون المطيّ ويرفلون بأحلى الزينة. ومنهم راجلون، زرافات زرافات. وطبل وزمر. وباعة حلويات وألعاب وحاجيّات من كلّ شكل ولون. أطفال ترقص البهجة في عيونهم، وترفّ فوق رؤوسهم «البالونات» الملوّنة... لكنّ ملوك ما على بالها كلّ ذلك. همّها أن تبيع حمل الجبن الذي نزلت به من الجرد، وببعض الثمن تتبضّع حاجاتها: لوح صابون، قرص نيل، بكرة خيطان، قنّينة كاز، رطل ملح، حبل... وأهمّ من كل ذلك علبة «راحة الحلقوم»، أوصاها حتّي ألّا تعود بدونها، وللأولاد «نمّورة» وحلوى أخرى.

تبضّعت ملوك كلّ ذلك، وهمّت بالعودة فكانت المصادفة: ماجد طربين شريك جيرانهم على الأرض في جورة الخيمة.

– «اللّه بعتك، يا ملوك. أمانة. خذي معك بطيخة لشريكي أبو خالد. هالخدمة بألف...»

امتثلت ملوك بمحبّة وسرور. وحملت مع البطيخة الكثير من سلامات الشريك الطيّب الآدمي.

وصلت المصيف قبيل الغروب. أنزلت الحمولة، ووضعت البطّيخة خلف البلاس*. «صابح القوم ولا تماسيهم، بكره نوصّل الأمانة»، قالت في نفسها، وانصرفت إلى تدبير الأمور، ريثما يعود حتّي بالقطيع. لما وصل أخبرته بكلّ ما حصل معها، ما عدا حكاية البطّيخة، أجّلتها ريثما توصّل الأمانة إلى أصحابها، وذلك لأن حتّي لا يحلّل ولا يحرّم! وفي الفجر، قامت ملوك، حلبت العنزات، وحملت الحليب كالعادة. ولم يلبث حتّي، حتّى خرج، بالقطيع، بعدها، واتّجه به إلى الهضاب... ما صعّد قليلاً في بطن التلّة، حتى حانت منه التفاتة إلى الخلف، إلى الكوخ، فإذا كرة زرقاء، ملساء، كبيرة، متلألئة بندى السحر، تخطف بصره! فرك عينيه، وعاد يحدّق: بطّيخة، بطّيخة!... ترك القطيع، وعاد إلى البطّيخة. حملها بين يديه بشغف واحترام، ومال إلى الصخرة القريبة. جلس، والبطّيخة بين رجليه، يد تثبتها، وأخرى تمتدّ إلى الجيب لتسحب «الطبّاقية» (المطواة)... لكن، ما كاد يسحب، حتى خرق أذنيه صوت من «تم السكّين»: حتّي، أوعا، حتّي، أوعا، أوعا...

* خيمة من شعر الماعز. (فارسيّة)

تمهّل ونظر! إنها ملوك، في طريق عودتها، واقفة، مذعورة، تنظر ما يهمّ أن يفعل حتّي، وتعود تصرخ به:

– «جوّهت* عليك اللّه. يرحم أمّك. يرحم بيّك. لا تكسر البطّيخة. دبحني قبل ما تكسرها!...»

لكن حتّي لا يريد ذبائح بشرية، ولن يرضى، بغير البطّيخة، ذبيحة! أسْرع بسحب الطّبّاقة، أمّ «الستّ طقّات»، فتحها بطقّة واحدة، وخزق البطّيخة.

– «البطيخة أمانة، يا حتّي. باعتها ماجد طربين لشريكو. بحياة السيّدة اللّي عيدها اليوم، لا تجرّصنا* . عيب علينا، يا رجّال، نخون الامانة!...»

لكنّ حتّي، – ومرحباً أمانة، ومرحباً ماجد طربين، وسلاماً أيّتها العيوب – مضى يعمل سكّينه في البطّيخة... يقطع، ويمشق فصيل البطيخ بفمه مشقاً، ويرمي بالقشر إلى الوراء، من خلف رأسه، بينما «زوم»* البطيخ يسيل على ذقنه وصدره كالدم... ملوك تصرخ وتستحلف، وحتّي لا يعفّ عن المغنم.

---

* في الفصحى: جعله ذا جاه وشرف. تستعمله العامّة كاستحلاف بمعنى: من أجل عظمة اللّه!

* تجعل الناس يندّدون بنا ويعيبونا. عاميّة، تحريف: جرّس الفصيحة.

* العصير، (سريانيّة)

يئست ملوك، وسكتت، وحرنت في الأرض، يتأكّلها الغضب. جمعت يديها، الواحدة فوق الأخرى، إلى بطنها، تكظم غيظها وتفكّر: ماذا ستقول؟ بماذا تعتذر عن الخطيئة العظيمة، خطيئة إساءة الأمانة؟!

لكن، ماذا ينفع بعد؟

وقع المحظور! ولن يردّ أسف أو اعتذار بطّيخة تذوب شيئاً فشيئاً في بطن حتّي. هي تتألّم أسفاً، وتحترق غيظاً، وشمس الصباح بدأت تسكب على رأسها ناراً، وحلقها جفّفه المسير الطويل! حتّي غير عابئ إلا لِلحْظته، يتنعّم بطعم البطّيخ وسكّره السائل!

فكّرت، وفكّرت، وفكّرت... ثم، رفعت رأسها وصرخت بصوت عظيم، مجلجل:

– آآآ حتّي!

فرفع رأسه قليلاً كمن أمن سوء عاقبة الأمر المفعول! فهو كان قد ذهب بثلاثة أرباع البطّيخة!

فلما آنست منه سمعاً، عادت وصاحت:

– «يرحم أمّك بقبرها! قلبي لهبان! خلّيلي فصل بطّيخ».

إحمل «الفلنطة» واتبعني

كان في ضيعة «كفر البيدر»، في أقصى شمال لبنان، الغافية على ضفّتي نهرها بأمانٍ واطمئنان، كاهن ذو فتوّة وبأس، اسمه سمعان... قويّ الشخصيّة، ثابت الجنان، كسّاب وهّاب، يقيل عثرات الكرام وغير الكرام، فلا يوصد بابه في وجه مخلوق. يحبّه أهل ضيعته، يقومون إذا قام ويقعدون اذا قعد، من غير أن يعرفوا لماذا قام ولماذا قعد. وهم يشعرون أنّهم أقوياء طالما هو بينهم، وأنهم سالمون، لا ينالهم مكروه طالما شملهم رضاه.

وكان أهل الجوار يهابونه ويحسبون حسابه، فيكرمونه بالهدايا، ويتجنّبون غضبه بكلّ وسيلة، فلا يقربون ممن حسب عليه، من أهل رعيّته، الذين كلّهم محاسيبه إلّا من شذّ، فيا ذلّه: فدّانه مفقود، عدّانه مأخود، بيدره محروق، زرعه مرعيّ...

وكان ممّا يزيد في اعتزاز أهل «كفر البيدر» بالخوري سمعان، والالتفاف حوله أنّ أهل الجوار كانوا على غير معتقدهم، وأقوى منهم عدّةً ونفوذاً. لكنّ الخوري سمعان كان يردّ كيدهم، ويحمي أهل الضيعة: «فرده» في زنّاره. فرسه الزرقاء طيّبة الحافر، يجثم الخوري على ظهرها كالنسر الأسود؛ فلا ينتصف النهار حتّى يكون في طرابلس... يراجع المطران، يحمل هديّة إلى القائمقام، يشتكي إلى رئيس الضابطة، ويخابر قنصل فرنسه.

والخوري سمعان معروف عنه أنّه لا يتردّد في إطلاق النار على قاطع طريقه، كذلك سرعان ما تلعب خيزرانته على قفا

المتواقحين... احتكّ به الأَغَوات وجرّبوه، فأثبت جدارته. ورفع رأس أبناء ملّته، وأخزى الخصوم: هؤلاء وأولئك يسقون أراضيهم الواسعة من جدولٍ واحد. ولأن الماء روح الزرع، والزرع روح بني آدم، كان النزاع مزمناً بين الجيران، يعنف في سني الشحّ، ويهدأ سنيّ الخزين؛ لكن الغبن كان دائماً نصيب الكفراويين (أهل كفر البيدر)... إلى أن برز الخوري سمعان، وواتته رياحه، فقسم الأراضي «فِطمين»*، ونظّم «عدادين»* الماء على أصحاب الحقوق من الطرفين، تنظيماً عادلاً، إلّا أرضه؛ عدا أنّها تشرب على الفطمين، فإن «المظبطة»* عادت من عند القايمقام، مع الموافقة، وعلى أنّ حقّه في الماء: «خوري سمعان تيخلّص».

ذلك كان سرّ القوّة في الخوري سمعان. لكنّ اللّه لا يكمّلها مع أحد! كان للخوري سمعان نقطة ضعف تنغّص عيشه وتهدّد مركزه، وهي ضعفه في القراءة والكتابة، وجهله في أمور الدين. هذه النقطة بدأت تكبر في السنوات الأخيرة إلى حدّ لا ينطاق! العلوم تتقدّم، والضيعة ترسل أبناءها إلى المدينة فيتعلّمون ويعودون ليثيروا أمام الخوري أموراً لا يعرف عنها شيئاً. صحيح لا يتجرؤون على التحدّي، لكنهم إزاء عجزه عن الاجابة عن أسئلة يثيرونها،

* منع الماء عن الأرض سنة بعد سنة ريّ.

* حصّة الأرض من الماء. (سريانيّة)

* الأصل: مضبطة. عرض مطلب أهلي إلى جهة رسمية لنيل الموافقة. (عربيّة)

ينظرون أمامهم ويبتسمون!... ولولا أنه «زكْرْت»*، ولولا أنّه موضع ثقة واعتزاز آبائهم لتواقحوا!...

كم أسف على أيام زمان! لكن ما ذنبه؟ هل هو الذي أراد أن يتخورن؟!

أبو الخوري سمعان، الخوري جرجس، كاهن الضيعة قبله، كان فاضلاً، تقيّاً، عالماً. أمّه، الخوريّة نمنوم، أيضاً كانت سيّدة فاضلة، تقيّة، تحفظ مقامها. كانت ولوداً، لكنها مئناث، أنجبت سبع بنات، حتّى جاء سمعان ثامناً أخيراً، فحمل اسم جدّه الخوري، ورأى فيه أهل الضيعة مستقبل الرعيّة. سيتعلّم ويتفقّه ويطلع خورياً أحسن من أبيه وجدّه... لكن ما أن درج الصبيّ حتّى بدأت الخيبة تتسرّب إلى أهل القرية، وتكبر كلّما كبر سمعان. أما خيبة الخوري فكانت فظيعة! وحدها الخوريّة نمنوم بقيت متفائلة، وظلّت تؤكّد أنّ سمعان، ولا بدّ، سيعود إلى أصله.

ولمّا كان الخوري جرجس أباً عطوفاً، يخيّم على القرية بأبوّة مباركة، وبقداسته يسهّل لها طريق السماء، دلّل أهل القرية صبيّه الوحيد، وتسابق أفضل الشبّان لخطب ودّ بناته، فلم تكد الواحدة منهنّ تقارب السادسة عشرة حتّى تصبح في بيت قرينها... هكذا اكتمل عدد الأصهار باكراً، وحوصر الطفل سمعان، والغلام من

* ذو بأس. (تركيّة)

بعد، بالرعاية والدلال! ففي حماية الخوريّة، لا تستطيع يد والده الخوري أن تطاله لتأديبه، ولا أهل القرية يتذمّرون من فعاله الشنيعة: «نقيّفته»* معلّقة في عنقه، إذا شاء نقف ظهور الشيوخ، وإذا شاء كسر، بالحصى، الجرار الملأى على أكتاف الصبايا، وحتّى لم يوفّر زجاج شبابيك الكنيسة؛ وكثيراً ما فدغ رؤوس أترابه... «يفرس»* أسيجة البساتين فينتهك ثمارها، ويطارد الدواجن، فلا من يتشكّى أو يتذمّر! شبّ وقسا عوده، فاتّزن قليلاً، وتحوّل طيشه إلى فتوّة وعنفوان، فقاد شبّان الضيعة في الهوشات، وحقّق لهم الانتصارات، فحاز إعجاب ذوي الدم الفائر من أهل الضيعة، وغاظ العقلاء من وجوهها، وبلبل هدوء بالهم! لكنّهم، إكراماً للخوري، وخوفاً من شعبيّة سمعان، احتملوا وسعوا في عقد المصالحات؛ «بوّسوا» اللّحى، وحلّوا أكياسهم ودفعوا الغرامات، وكسروا الشرّ...

... إلى أن وقع سمعان في الحب!

الحبيبة، مريم بنت المختار، رفيقة الطفولة وعشيرة الصبا: شقراء جميلة، خضراء العينين. مشيقة رشيقة. عاقلة. طيّبة كالبلسم؛ ضعها على الجرح، للتوِّ يبرأ...

* قوس من خشب أو غيره تربط في كلّ فردة منه مطيّطة وتجمعان بقدّة من جلد تتّسع لحصاة ترمي بها العصافير، فهي آلة الصيد القديمة للفتيان.

* يقطّعها ويبعثر أشلاءها كالفريسة. (عاميّة)

بادلت مريم سمعان حبّاً بحبّ. ولِمَ لا؟! هو طائش؟ صحيح. لكنّه جميل الطلعة، مهيب، أصيل؛ وعلى قساوة مسلكه مع الناس، يرقّ معها، فيكاد يذوب كسكّرة، ويسلس القياد كحمل! لكن والدها لم يكن يشاركها الرأي: سمعان يعيش الآن في عزّ والده الخوري. لم يتعلّم ليرث عنه الوظيفة، فماذا سيعمل؟! وكان يردّد أمامها: «يا حسرة! لو... ما كان حدا قدّو. الخورنة مزراب دهب. أما هيك؟! سمعان لا يطلع بيده شغل. فلّاح ما بيقدر يعمل. بس قواسات! شغلة يللي آخرتهم الحبس. متى راح الخوري تنكسر هيبة سمعان، ويشحد...» المختارة، أمّ مريم، كان حديثها، أيضاً، من حديث المختار، فكانت تختم حديثها عن سمعان، قائلة: «... ما له مستقبل. رغيفه لا يلزق بتنوّر!»

أمّا مريم التي لا تريد أن تتعقّل، فكانت تبلع الغصّه، وتسكت على مضض، وتصلّي حتّى يفرجها اللّه بحكمة ما من عنده.

وعرف سمعان بالمعارضة، فسحق بأسنانه مهدّداً، محذّراً، مستخفّاً: من يجرؤ على طلب يد مريم؟ إما نحن معاً، وإما هي عازبة وأنا عازب!

وكان رفض المختار وإصرار سمعان على مسمع ومرأى من الضيعة، وانقسمت حزبين. حزب الخوري هو الأقوى. ضغط سمعان على أمّه: «مريم لي، اعملي شي!» ضغطت الخوريّة، بدورها على الخوري: شو باك؟ ما أنت حاسس بحالة

هالصبي؟... ودفعته، بعد جهد جهيد، إلى زيارة المختار وطلب يد مريم لسمعان رسميّاً. ذهب الخوري مكرهاً، وتوقّع النتيجة سلفاً:

– حلّت البركة يا بونا.

– «يا مختار، يا ابني، بيتك وبيتنا واحد. أنت لتدبير الأمور الزمنيّة بالضيعة، وأنا: الأمور الروحيّة. خلّينا نتّحِد: البيتان واحد، والضيعة واحدة. مريم لسمعان!»

– «كلامك على راسي يا بونا. بس...»

– «بس إيش؟»

– «ما يضمن مستقبل بنتي؟»

– «وَلوْ؟! سمعان شيخ الشباب... رزقه وحده يكفي!»

– «يا بونا أنت أعرف بسمعان. لو معه رزق السلطان، يطيّره بعدك. لا يطلع بيده شغل. لا تواخذني يا بونا. أنت غالٍ، لا يَنْرد لك طلب. لكنك حقّاني، فاحكم!»

إحتقن وجه الخوري. نظر في الأرض ولم يجب. مسّد لحيته مرّة، مرّتين. نفخ، ورفع رأسه إلى العلاء، وكأنه يستنجد بالقدرة. نهض، وقال:

– معك حقّ يا مختار! تصبح على خير.

تلك الليلة لم ينم الخوري! صلّى وصلّى. قرأ الفرض مرّات... ولم يشقّ الفجر عن وجهه حتّى حلّت نعمة الروح القدس! لقد صمّم الخوري جرجس...

نهار الأحد، في الكنيسة، قبل القدّاس، أشار الخوري إلى مريم إشارةً خفيّة، فتبعته إلى كرسيّ الاعتراف:

– «مريم! هل تحبّين سمعان من كلّ قلبك وعقلك؟»

– «يعلم اللّه، يا بونا، وسمعان يعلم، والضيعة...»

– «ساعديني، أساعدكما...»

– «أأمر يا بونا».

– «اشترطي على سمعان، تتزوّجينه، فقط، إذا بيصير خوري! الباقي عليّ...»

بعد القدّاس فوراً، أخذ الخوري دربه إلى طرابلس، بعد أن أخفى تحت جبّته «كمراً»* مكتنزاً بالذهب. وصل إلى «القلّاية»* عصراً. لم يجد المطران، فانتظره حتّى حلول الظلام.

– «نعم يا سيّدنا. الأمر ضروري ومستعجل! الضيعة على كذا وكذا... بدنا نعمل سمعان خوري!»

* محفظة يتزنّر بها. في الأصل من شعر الماعز أو وبر الإبل. (فارسيّة)

* شبه الصومعة وهي هنا مركز المطران. في الفصحى: قليّة.

– «سمعان يعمل خوري؟!... تطال يده القمر ولا تطالها! مين ما بيعرف سمعان؟ سمعان خوري، قال...!»

فكّ الخوري كمره، وخبطه في حضنه، «فجمّش»* الذهب في الكمر، وتابع الخوري كلامه قائلاً:

– «يا سيّدنا، اذا زوّجنا سمعان يعقل، فينكسر الشرّ في الضيعة. أنا كفيل، أمام قدسك، أن أعلّمه القدّاس خلال أشهر. سمعان ذهنه مليح، إذا أراد وصل. وأنا، عبدك، تعرفني، إذا قلت وفيت. خلّصنا، يا سيّدنا، بارك. الكل له مصلحة. أنت، أيضاً، عندك مصاريف. فقراء «الأبرشية» أكثر من الهمّ على القلب...»

ورفع الخوري «كمره» من حضنه مشيراً إليه أمام المطران الذي ابتسم وأجاب مشترطاً:

– «أتضمن تعليمه القدّاس جيّداً؟»

– «أضمن»

– «أتضمن أنّه يتعقل، فلا يأتي بما لا يليق بكاهن؟

– «نعم، أضمن».

* صوت النقود أو الحصى إذا تجمّعت. الجمش، في العربيّة الفصحى، الصوت الخفي. تقول العامّة: جمّش الحيط أي صدر منه صوت خفي يدل على أنه بدأ بالتصدّع.

– «أتضمن أن يطيعني، خصوصاً، ولا يسبّب لي مشاكل؟»

– «نعم، أضمن».

– «طيّب! اتّكلنا على اللّه...»

عاد الخوري جرجس، ثاني يوم، من طرابلس والبشر على مُحيّاه، و«البقلاوة» في الصواني، والتمر في «القفّه»، بانتظار الضيوف... إختلى بالخوريّة، أخبرها وحرّضها على سمعان – لم تكن بحاجة إلى تحريض–. قالت فرحة: – «سمعان عندي».

ثمّ استدعى سمعان، وفهّمه الوضع. سمعان لم يفاجأ: مريم أبلغته شرطها، وحلفت له بمار جرجس والعدرا والأربع عيون (عيني سمعان وعينيها) أنّها لن تتزوجه إلا بعد النذر الثالث. حاول أن «يتبهور»*، لكنّها أكّدت له بكل تصميم:

– «لن أتزوّج مخلوقاً بعدك! لكن درب الراهبات أعرفها».

سمعان حدس بالملعوب، لكن، في البداية، لم يدرك السرّ! فقط، عندما فاتحه أبوه بالأمر، أدرك أنّ الخوري ينسّق مع مريم... وما عليه؟ أليس هما أحبَّ مخلوقين، في الوجود، إلى قلبه؟ لذلك ارتاح للفكرة، وأجاب أباه بمرح:

– «كل هَالْقد بدها؟ أعمل خوري، وأعمل مطران أيضاً...»

* عامية. فصيحها: يبتهر.

وضحك الخوري ملء فمه:

– «أنت مطران؟ لِمَ لا إذا كانت مريم أبرشيتك!*...»

واجتهدت الخوريّة في تقوية عزيمة ابنها ما وسع الأمّ أن تحبّ لوحيدها الخير...

ودأب سمعان على المشاركة يومياً في خدمة القدّاس، وليليّاً يحفّظه الخوري بعض السريانيّ و«الكرشونيّ»* ويقرّئه في «السنكسار»*... واحتمل سمعان...

المختار بدأ يتراخى، فيتأخّر، بعد قدّاس الأحد، يسلّم على الخوري، وأحياناً يشرب عنده فنجان قهوة. والمختار ليس كسلانَ؛ حالما سمع بالخبر: سمعان يتدرّب على الخورنيّة، حتّى انسلّ إلى المطرانيّة ليطمئنّ، مباشرة، من فم المطران. فأكّد له المطران تصميمه على سيامة سمعان خوريّاً. وشجّعه على الدخول في المشروع.

لم يطل العمر بالخوري جرجس، بعد سيامة سمعان كاهناً، فمات قرير العين، رضيّ النفس: سمعان خوري الضيعة. الخوريّة

* مجموعة رعايا واقعة تحت رعاية الأسقف كنسيّاً. (يونانيّة)

* كتابة العربيّة بالخط السريانيّ. شاعت هذه الكتابة عند الموارنة منذ أوائل القرن الثالث عشر.

* كتاب يجمع سير حياة القدّيسين يقرأ منه على الشعب أيام الأعياد. (يونانيّة)

مع كنّتها مريم، أحلى من الزبدة على العسل... ولاقت روح الخوري ربّها في الملكوت الذي اصطفاه اللّه لمختاريه.

وطاب الدهر على الخوري سمعان: حال ميسورة. نفوذ وجاه كبيران. عائلة هنيئة. ماذا يريد أكثر؟!

لكن!

هؤلاء أبناء الجيل الجديد! أبناء الجيل الجديد المتعلّمون في مدارس المدينة والاكليريكيات؛ مع أنّ واحدهم لا يستحقّ أن يفكّ سير حذائه، ينغّصون هناءه. هو، أسد الرجال الذي تخافه السباع، يخافهم؟! لماذا؟ لولاه؛ لولا الأمان الذي يوفّره للضيعة بجاهه، هل بقي لأهاليهم ما يستطيعون أن يرسلوهم به إلى المدارس؟

العلم قلب الدنيا قلباً. الناس بدأوا يتغيّرون. طلاّب الخورنيّة يتعلّمون عند اليسوعيّين في غزير، ولا يرسمون كهنة إلا بعد نيل الشهادة في اللاهوت، وابنه جرجس واحد منهم. أما هو؟ هو لا يزال في عزّ مجده! هل يترك مجده ينهار؟ ما العمل؟ ماذا تخبّئ الأيام؟

وجاء يوم... كان الخوري سمعان بلباسته البيضاء، يقيّل، بعد الغذاء، تحت الجوزة الوارفة، أمام منزله، في يوم صيفيّ قائظ؛ عندما جاءه أحد أنسبائه، ملهوفاً، وأسرّ إليه:

– «البرديوط»* ارسيانوس، معه كاهن وشمّاس، في قرية حرف الوادي، في زيارة رعائيّة... ثم أضاف، بعد تردّد:

العلم بيد اللّه، يا بونا، يقولون إن المطران الجديد أرسلهم لفحص خوارنة الرعايا في التعليم المسيحي!

اعتدل الخوري في جلسته، ونظر نظرة الصقر في عينيّ محدّثه، واستزاد:

– «شو هالحكي؟ «تخْريعة»*!» «إيّاك تمزح بهيك موضوع!»

– «وَلَوْ يا بونا؟ إيش مصلحتي؟ هيك عرفت!» لاكها الخوري سمعان في فكره... تساءل: يفحصونني؟ أم يفضحونني؟ يشمّتون الناس بي؟ وكرامتي؟ وجاهي؟ «بعد الكبرا جبّة حمرا؟!»... واكفهرّ الخوري سمعان، وأمر نسيبه:

– «بعتلي جرّوج، «يتجزّم»* ويسرج العبيّه (اسم فرسه)...»

ثمّ تابع في سرّه: «أتغدّاهم قبل أن يتعشّوني!»

---

* رتبة الكاهن الذي يرسله الأسقف لزيارة الرعايا. هي رتبة شرفيّة عند الموارنة. (يونانيّة)

* خبر تخويفي. صوت تهويلي: خر ع ع ع... كان يطلقه المزارعون ليلاً ليخيفوا الحيوانات القارضة في حقول الذرة.

* ليلبس الجزمة.

وجاء جرّوج مستعدّاً، فوجد معلّمه بكامل العدّة، عدّة أيام زمان، أيام الشقاوة:

– «هات الفرس. إحمل «الفلنطة»* واتبعني!»

صعّد سمعان في طريق حرف الوادي، وجروج، وراءه، ماشياً، يكاد قلبه ينقطع... وصلا قبل أن يحمرّ قرص الشمس: الخبر صحيح! «البرديوط» ارسيانوس في بيت الوقف. ماذا جاء يفعل؟

– «جرّوج! لقّم سلاحك! إذا سمعت صوت البارود، لا تخلّي حدا يقرب الباب قبل ما أطلع! متل أيام زمان. فاهم؟ أيام زمان...»

كان خوري الحرف، مع ضيوفه، يحتسون القهوة. أمامهم أوراق ودفاتر، وفاكهة... كانوا في جلسة ودّ ومؤانسة... أمّا سمعان، فكان مهتاجاً! حرّك زنّاره قبالة «البردويط» مرّتين. تقدّم ووضع يمناه على «الفرد». بالأخرى أشار إلى القلم والأوراق، أمام دهشة الحضور الذين عقل الرعب ألسنتهم... وصرخ «بالبردويط»:

– «شو، يا بونا ارسيانوس؟! بعد عشرين سني كهنوت، باعت

* بندقية من صنع بلجيكا كانت معروفة Flammande «فلامّند» فحرّفها العامّة إلى: الفلنطة. رصيفتها في الشهرة مرتينة الفرنسية. نسبة إلى مصانع السلاح في «سان مرتان» Saint Martin

سيّدنا يسألني: أمسيحي أنت؟! اكتب: خوري سمعان الكفر جيّد جدّاً...»

وقف النبض في قلوب الحضور، وجحظت الأعين...

ابتسم ارسيانوس ابتسامة ذكيّة، وقد استشفّ خيوط المقلب:

– «ولو يا بونا سمعان؟! سيّدنا مين ألو غيرك هون؟ لولاك ما بيدق جرس بِـ هَالدّيره...»

وتابع:

– «بس مسألة «العشور»* !... كمان صار لنا زمان ما مالحناك، وذقنا أكلات الخوريّة».

وانطفأ غضب الخوري سمعان فوراً... ثم جلس مرتاحاً، وحسر «طابيّته»* عن رأسه، فتصاعدت من تحتها رائحة القوزي والأرزّ. وغرّدت في أذنيه أهازيج الدبكة وأنغام المِجْوِز في ملقى وكيل المطران.

* ضرائب يدفعها المؤمن للكنيسة تساوي ١/١٠ من الدخل.

* عند الموارنة ما يلبسه الخوري على رأسه. (ايطاليّة)

حكاية بدويّة

من نوادر العرب المتداولة في البادية أعيدت
صياغتها لتتلاءم مع العصر العربي الراهن. وهي
مهداة إلى روح صديقي القديم أبو غازي.

كان يعيش، قديماً، في حيّ من أحياء العرب، رجل اسمه يعقوب، جاء من بلاد بعيدة. لا يعرف أحد، من أهل الحي، من أين جاء، ولا كيف جاء، أو ما الذي جاء به! بل لعلَّ شيخ القبيلة يعرف! وهذا يكفي أهل الحي. ويكفيهم أنّهم أفاقوا، ذات صباح، فرأوه في خيمة الشيخ، يجلس متّكئاً، مرتاحاً، يشرب القهوة، إلى يمين الشيخ.

قال شيخ القبيلة: يعقوب ضيف وجار، نحبّه ونحفظه كواحد منّا.

وسمع العرب الميمونون كلام الشيخ، وآمنوا، وصدّقوا...

ومضت الأربعون يوماً؛ انتقل بعدها يعقوب، وسكن خيمة في طرف من الحي. بدأ نشاطه في شراء بعض الأنعام من معسري أبناء القبيلة، الذين، على إعسارهم، كادوا يتصدّقون بماشيتهم على يعقوب لشدّة ما أظهر من مسكنة وخفض جناح؛ لكنّهم، وإن لم يتصدّقوا، فقد تساهلوا معه، وهاودوه بالثمن.

وظهر اليسار على يعقوب سريعاً. صار يغيب عن الحي فترة، ويأتي معه بسلع وأغراض تحتاجها القبيلة: حبال ونعال، وأقمشة

وأصباغ، وقطران وخيطان، وما أشبه... أما هداياه لشيخ القبيلة فمسابح من مرجان وزمرّد، وساعات فضيّة وذهبيّة بسلاسل، وأحذية وعباءات وحلوى... وامتلأت بالسلع خيمة إلى جانب خيمته، وثالثه كبيرة أيضاً... وكان يقايض العربان خرزاً وشراريب بسمن وجبن. وفوانيس بأصواف وحليب. وأقمشة وخيطان بنعاج وحملان... وكان يديّن المعسرين، ببعض الربا، لكن بسهولة ومن غير كفيل، ولا إلحاح في ملاحقة المدين. ينتظر الموسم، فالذي يليه؛ حتى لو صارت له في ذمّة مدينيه مواسم. هكذا اغتنى غنىً فاحشاً إلى درجة أن شيخ القبيلة كاد أن يزوّجه ابنته، لولا اعتراض أعيان القبيلة وامتعاضهم! مع ذلك لم يصعب على يعقوب أن يتزوّج بفتاة جميلة، جاء بها بعد غيبة قصيرة، وابتنى بها وصارت له عائلة... ورغم اعتذار الشيخ عن تزويجه بابنته، حافظ على صداقته معه صداقة حميمة، لم يعرف أحد سرّها، فبقيت من جملة الألغاز التي تحيط بهذا الرجل العجيب، النافذ الكلمة.

لكنّ يعقوب كان بخيلاً، وبخيلاً جدّاً! والبخل خِلّة يكرهها العرب، ويعتبرونها أبرز عيوب الرجل؛ وتجبّ، عندهم، كلّ فضيلة إن وجدت، وذلك لأنّ الكرم من قيمهم الاصليّة، فهو فضيلة الفضائل وستّار كلّ عيب. لهذا، ورغم تعاملهم اليومي مع يعقوب، كرهوه، وتجنّبوا رفقته ومحادثته إلّا لحاجة... ما عدا واحداً، هو للعجب، أفقر أهل القبيلة وأكرمهم في آن! إنه عُرَيْب.

عريب هذا لا تجمعه عمالة ولا مصلحة مع يعقوب، فهو لا يحتاج أقمشة وأصباغاً، ولا رياشاً أو حبالا أو قطراناً؛ ولا ماشية عنده ولا أنعام. لكنّه ذو بنين وبنات يؤجّرهم من موسري أهل القبيلة وأصحاب الضأن والأنعام، فيعملون أجراء ورعاة. يتقاضون أجورهم، ويدفعون بها إلى عريب والدهم. وعريب لا يدّخر ولا يكنز الكنوز؛ يسخو مما يعطيه أولاده على أي إنسان، وحتّى على صديقه يعقوب الذي لا يأنف من مدّ يده إلى زاد العربان، أكانوا فقراء أم أغنياء؛ يصيب من زادهم، ويشرب قهوتهم، ويستعمل ماعونهم. أمّا هو، فلا يمكن لأحد أن يمالحه أو يرتشف قهوته أو يستخدم غرضاً من أغراضه. لكن عُرَيْباً هذا، كان يبدو عليه أنّه شديد التمتّع بصحبة يعقوب. يجلس إلى جانبه في الأفراح والأتراح، ولا يبتعد عنه في أيّ مجلس من المجالس. يقبل على الحديث معه بكلّ جوارحه، فيبدوان ضاحكين مستبشرين، لا يشبع أحدهما من خِلّه، ممّا أثار حفيظة أبناء القبيلة على عريب، ابن جلدتهم، فسألوه مستغربين لائمين:

– «ما بالك، نراك دائم الصحبة مع يعقوب، تحادثه ويحادثك كأنّ بينكما أمراً مُريباً!»

«ماذا بينكما؟»

أجاب باقتضاب:

– «ما بيننا شَيْ.لكن عَ شان أحزّروا حزازير يحلّها!»

ومرّت الايّام والسنون... مرض عريب مرضاً شديداً، فاستدعى إليه، وهو على فراش الموت، جميع أبنائه، وقال لهم:

– أيّها الأبناء الاحبّاء، باركّكم اللّه، ورزقكم الصحّة والبنين والمال. أنا راضٍ عنكم كل الرضا. أيامي صارت معدودة، ولي إليكم وصيّة. عدوني أنّكم ستنفّذونها لِتَقرّ روحي! قالوا بصوتٍ واحد:

– «سلامة قلبك، يا أبانا الحبيب! نفديك... لكنّك بخير، وسيطول عمرك».

قال:

– لا يخشى الموت من له أبناء أمثالكم، عدا أنّ الموت حقّ، وكلّ حي مائت، ويبقى وجه ربّكم ذو الجلال والأكرام. لكن، عدوني! فوعدوه دامعين.

قال:

– غداً، إذا ما حانت ساعتي، تكفّنوني، ما عدا يدي اليمنى، تطلقونها عارية، مفتوحة الكفّ خارج الكفن؛ وتجعلون درب الجنازة من أمام بيت يعقوب صاحبي...

لم يلبث عريب أن توفّاه اللّه مأسوفاً على كرمه ونخوته وعروبته. وقام أهل الحيّ بالواجب وأكثر، فكأنّ عُرَيْباً عين من أعيان القبيلة. حضر الجميع وصلّى على جثمانه الطاهر – آجرهم

اللّه – إلّا يعقوب الذي لم يخرج من بيته، كدأبه في مثل هذه الأحوال، فقد اعتاد ألّا يشارك أهل الحيّ في تقاليدهم...

ووفى الأبناء بوعدهم لأبيهم، فمشوا بالنعش باتّجاه بيت يعقوب، ليعرّجوا، من بعد، إلى المقبرة. وخرج يعقوب، أمام بيته، يرى الجنازة، فما وقعت عيناه على النعش حتّى استغرق في الضحك، ممّا أثار العربان فهاجوا وماجوا، وندّدوا وأدانوا يعقوب على فعلته النكراء، وهمّوا كأنهم يريدون البطش به، وصرخ صارخهم:

– أشماتة في الموت! والميت صديقك الوحيد؟!

فاستمهلهم يعقوب قائلاً:

– لست شامتاً! عريب فعلاً صديقي. وأنا حزين، أسيف عليه! لكنّ ما أضحكني هو أنّ عريباً صديقي كان يلقي عليّ الألغاز، وهو حيّ، فأفكّها أمامه. ها هو الآن ميت، يلقي عليّ اللغز الأخير. وإنّي قد فككته!

– ما هو؟ ما حلّه؟ هات برهانك إن كنت صادقاً.

أجاب:

– يقول عريب: أنظر يا يعقوب ها أنذا على النعش، كما تراني، فما تقول بحالي؟ أمّا الحلّ فهو: الانسان يأتي إلى العالم غير حامل معه شيئاً... كذلك يغادر العالم، كعريب الآن، صفر اليد،

كما جاء العالم، وهو ما عناه عريب بيده العارية المفتوحة خارج الكفن!...

أعجب القوم بذكاء عريب وفطنة يعقوب. فهم يقدّرون الفصاحة، وما زالوا يؤمنون: «أنّ من البيان لسحراً...»

ثمّ أردف يعقوب

– يا قوم! اسمحوا لي أن أمضي معكم فأشيّع صديقي حتّى مثواه الأخير. ثمّ نعود ونأكل لقمة الرحمة على روحه الخيّرة!

والتفت إلى خادمه قائلاً:

– يا غلام! إسْعَ في طلب الخرفان السمان، وانحر منها سبعاً، وجهّز العشاء، فقد طابت، اليوم، نفسي، وسمحت...

تلك الليلة أكل أهل الحيّ من شواء لحم الضأن ما لم يأكلوه في عام. وأعجبتهم أرْيَحيّة يعقوب أيّما إعجاب. وعظم في أعينهم، ونسوا ما كان بينهم وبينه، وهو ما أثلج صدر شيخ القبيلة. لقد جعلت تلك العلفة المَهولة يعقوب واحداً منهم، إلى درجة أنّ نحاة القبيلة صيّروا يعقوب، الاسم الأعجمي، يعقِبَ، حتّى لا يكون منعه من الصرف على العجمة، بل لأنّه على وزن الفعل المضارع؛ فصاروا يطبّقون قواعد اللغة، عند تعليم أطفالهم، بأمثلة جديدة، فيقولون: أكرم يعقبُ عُرَيْباً، بعد أن كانوا يمثّلون: ضرب زيدٌ عمرواً.

عندما تشرب الجداء

الصيف، في بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، حارّ وجاف؛ وهذا ما جعل السكّان، هنا، ومنذ القديم، يبرعون ببناء الأقنية والقناطر، فيوفّرون لبساتينهم حصصاً من الماء المحيي، يتوزّعونها بالقسطاس.

قريتنا «عين الست»، في شمال لبنان، لم تشذَّ عن هذه القاعدة. فالأهالي جرّوا ماء عينهم التي أعطت القرية اسمها، وبساتينهم رواءها، في قناة ترابيّة طالت وتلّوت وعرّجت وتفرّعت، يختفي ماؤها في مواضع تحت جسور العشب الأخضر، وفي مواضع يعترض «الجرجير» الزاهي الأخضر جريه فيتباطأ، ثمّ تسمعه مسقسقاً تحت الظلال، أو تراه متحدّراً يغنّي بين الصخور في شلاّلات صغيرة، أنيقة مثل ليّات ثوب العروس.

وحديث الزرع والماء، والماشية والعشب، والريح والشجر، والغلال والثمر هو دائماً حديث الليالي، في القرية، وعمل نهاراتها. لكن في أواخر الربيع يسود الحديث في سهرات أهالي العين على الساقية والشاوي (ناظر الماء)، و«المَساكير» والمصاريع، ولا سيما المناقرات التي تكاد تكون يوميّة، أثناء فصل الصيف. فالساقية الترابيّة تُهمَل صيانتها طيلة فصول الخريف والشتاء والربيع، إذ يوجَّه ماء العين، مباشرة، بعد المنبع بأمتار، إلى الوادي، فتنبت الأشواك في أرض المجرى، وتتكاثف الأعشاب وتلتفّ. في أماكن يطمّ التراب والحصى فيه، وفي أخرى، تجرف

السيول حفافيه، فيحتاج إلى الاصلاح من جديد، ليعود صالحاً لاستقبال الماء... «والشاوي»، مدير الماء، يقود المجاري، وينظّم الأدوار؛ يفتح لهذا المسكور، ويسكّر لذاك، والكلّ يلحّ ويريد دوره أقرب، وأن يبقى الماء في أرضه أكثر، والشاوي عجلان يريد أن يرضي الجميع، لا سيّما في بعض السنين، إذا كان الخزين ضعيفاً، ومنسوب الماء شحيحاً؛ عندئذ تكثر المناقرات، إذا كانت شخصيّة «الشاوي» ضعيفة.

هذا الصيف الحارّ سبقه شتاء وربيع بخلا بالأمطار والثلوج؛ ومع ذلك استبشر الأهالي خيراً، ففي ظنّهم أنّ المناقرات ستكون نادرة لأنّ ابراهيم الحبيب قرّر أن يكون هو بنفسه، «الشاوي». دار «بالمظبطة» على الملّاكين لأخذ التواقيع عليها، بمن فيهم الآغا، كبير الملاكين. وحصل على الإذن الرسميّ بتوقيع رئيس البلديّة، وصارت «المظبطة» الرسميّة في جيبه.

وابراهيم الحبيب، هذا رجل في الستّين. يعمل، منذ شبّ، جزّاراً، يذبح المعزى الجبليّة في دكّانه الملاصق لبيته، أسفل القرية. لم ينجب أولاداً فعاش ميسوراً. هو رجل ربع القامة، مجدول الزند، شعرانيّ. سريع الغضب، إذا استُفِزّ تحدّى، ومضى في تحدّيه حتّى «كسر العضم».

بعد أن حصل ابراهيم الحبيب على وظيفة «الشاوي»، بدأ الأهالي أحاديث سهريّاتهم عن ذكريات الماضي البعيد، يوم

ابراهيم في مطلع الشباب، مملوء بالعنفوان والتيه، كثير النزق! كان إذا تولّى «الشاويّة» يمشّي دور السقاية كالساعة... من بيته الصيفيّ على التلّة المقابلة للقرية، يصرخ:

– «آ ااا... بوعلاء، وَيْن صرت؟»

– «يا لّلله... بقي «داكونه»* شرب سيكارتين وخلاص»!!

ثم:

– «آ ااا...»

«يوسف الحفيان، هيّر* حالك، بعد شرب سيكاره، المي معك!...»

ويشرب يوسف الحفيان سيكاره تكلّفه نصف ساعة، ليقوم بعدها فيحمل مجرفة، ويمشي. وليس من قبيل المبالغة أنّ شرب سيكارة يقتضي نصف ساعةٍ من الوقت. الوقت مهمّ فلا يتعاملون معه على وجه التقريب، وإنْ لم يكونوا يمتلكون آلة الساعة. فيومهم مصراعان: ليل ونهار. ونصف نهارهم قلْبة الشمس. ونصف ليلهم ارتفاع «الميزان» قامة عند الأفق. وساعتهم شرب سيكارتين: «التتن» أي التبغ، عربيّ، فلت، «مكبوس»* في علبة

* زاوية صغيرة من الأرض. عامية.

* استعدّ. (عاميّة)

* مضغوط. سريانية.

معدنية، يأخذ منه «المتتّن»، بين أصابعه، ويلفّه بورقة، متأنّياً. يأخذ «البولادة»* وحجر الصوّان. يضع على الحجر «صوفانة»* ويقدح، فتشتعل الصوفانة بعد جهد، ثمّ يشعل السيكارة ويمجّ دخانها متلذّذاً على شميم عطر، كالبخور، فاح من احتراق الصوفانة ومن التبغ الطبيعي...

هكذا تسير الأمور عندما يكون «الشاوي» ابراهيم الحبيب! لا يتخلّف واحد، ولا يغالط آخر: ابراهيم مستبدّ عادل. شرّه قريب. لا يتردّد في مواجهة أيّ إنسان مهما علا شأنه. يتجنبّه الجميع، ويجتهد كلّ واحد في تفادي الصدام معه؛ إلا عشير صباه وجاره أبو حميد، ابن المختار الذي اصطدم به، ذات مرّة، في حادثة لا يمكن أن ينساها أهل القرية!

نشأ الرجلان تِرْبين، وشبّا صديقين. يتجافيان أحياناً، وسرعان ما يتصافيان. تماثلا في الجرأة والعنفوان، وافترقا في البأس: إبراهيم شابّ كأحد فرسان الحكاية، حكاية بني هلال التي يستمع إليها الأهالي كلّ ليلة من ليالي الشتاء! أبو حميد قصير القامة، رقيق البدن؛ لكن أكثر وجاهة وأكبر عُزوة. حصلت الحادثة أمام باب قلم الاقتراع، في آخر انتخابات عرفتها البلاد قبل أن تُغْرِقها الحرب الأهليّة منذ عشرين سنة تقريباً... تصدّى أبو حميد

* قضيب فولاذ معكوف على شكل متلّت.

* نوع من الفطر ينبت على ساق الشجر (السنديان) يُعَدّ لتقدح فيه النار.

لصديقه ابراهيم يريد أن يمنعه من الاقتراع للمرشّح الخصم. تجادلا، تصايحا، تشاتما... وناول ابراهيم صديقه ضربة عصا شجّت رأسه. ولم يكد يثنّي بالأخرى حتّى تداولته الأيدي والأرجل صفعاً، لكماً، رفساً... ولو لم يسارع رجال الدرك، المولجون بحفظ النظام، إلى تفريق المتشاجرين، لكان الشرّ كبر، ويعلم اللّه!..

مضى على الحادثة عشرون سنة. نسي الناس الانتخابات وتعاضدوا على مواجهة الأحداث الأهليّة التي عصفت بالوطن. وعادت المياه إلى مجاريها بين الصديقين ابراهيم الحبيب وأبي حميد بفضل سعاة الخير والظروف المستجدّة، لكنّ العداء لم يسقط بتقادم الزمن، تماماً، فبقيت في الصدور حزازات!...

– ما قولكم؟ يقع الشرّ، هذا الصيف، بين الصديقين اللدودين، بسبب الماء؟

ردّد أهل القرية هذا التساؤل، في جلساتهم وسهرياتهم، مراراً. لكن الصيف انتصف، ومال إلى منقلبه الثاني. كلّ المسألة مسألة أيام لا تزيد على عشرة. صعبة! صحيح، لكن، بعدها، يحين قطاف التفّاح فيفطم؛ وبعض مواسم الخضار تخلي مكانها للزراعات الشتويّة، فيخفّ الضغط على طلب الماء... نعم! انتصف الصيف، ولم يقع الشرّ لأن أحداً من البطلين لم يرده... كان «الشاوي»، إذا ما حان دور أبي حميد، يوجّه الماء في

ساقيته، ويوصي له: الماء في أرضك... ويسقي أبو حميد أرضه كفايتها، فإذا ما ارتوت، يرفع الماء عنها ويعيده إلى مجراه. نهار الأحد يلتقي «الشاوي» أمام الكنيسة، كعادة أهل القرية، قبل القدّاس أو بعده، فينقده الرسم المعهود، قائلاً: هذا حقّك...

آب اللّهاب يقترب من نهايته. هذه السنة كان لهّاباً بالفعل! اشتدّ العطش بالبساتين، وخفّ منسوب ماء عين الست... ارتفعت الشكوى وعلا صراخ العطاش، وساد التذمّر، ممّا أوقع «الشاوي» في كرب: يَعِد هذا بالفرج القريب. يتوعّد هذاك. يهوّل على ذلك ويتشاجر مع تلك... الحال ماشية، لكن بجهد جهيد!...

إلى أن كان يوم، من أواخر آب، شديد القيظ! نزل ابراهيم الحبيب من بيته، مقرِّ قيادته على التلّة، منذ الفجر، خلافاً لعادته. مِجرفته على كتفه، يشمّر عن ساعديه الأَشْعَرَيْن، تخبّ قدماه في جزمة مطّاطيّة؛ يتنقل بين بستان وبستان، يحثّ المالكين على الاسراع، قاصراً السقيا على الملحّ من الزرع العطشان؛ ويشارك في العمل والمساعدة...

الطلب على الماء شديد، والأمور تسير في طريق التأزّم!... ما جاءت الظهيرة، ذلك اليوم، إلّا وقد بلغ منه الاجهاد مبلغاً. جلس على حافّة البستان، حيث الماء، مسنداً ذقنه على يديه الممسكتين

بطرف المجرفة، وهو يراقب أبا غازي الهاشم يصرّف الماء الشحيح بجهد وصبر بين الذُرة الذابلة!...

– «يلعن!... خيّي ابراهيم، انقطعت المي!»*

– «إيش ما تقول؟!»

– «هيك! متل ما سمعت... قوم، شوف! «زرنوقة»!*

هبّ ابراهيم الحبيب، على تعبه، واقفاً. تقدّم:

– «صحيح! واللّه! وين راحت؟ مين قطعها؟»

فار غضبه، فتنكّب مجرفته، ولحق الساقية.

مشى ومشى ومشى...

– من يجرؤ؟ هو؟

حدّث نفسه بصوت عالٍ! انتابته الظنون، وتساءل:

– لماذا؟ لم يطلب الماء، وزرعه يحتمل! عجباً!! هل يجرؤ غيره، وفي مثل هذه الأزمة المشتدّة؟! هل يريد تجديد الشرّ من غير سبب؟ كنّا مرتاحين، وكل شيءٍ مضى وانقضى!...

إذاً؟!

* الماء. (سريانيّة)

* الماء القليل. (سريانيّة). والزرنوق بالعربية الفصحى: النهر الصغير.

وتمنّى، بكلّ إحساسه، لو يكون آخر قطعها. وكأنّه صدّق ما تمنّى، فهزّت يمناه المجرفة، لا شعورياً، هزّة تهديد. ومضى مصمّماً، وقد ارتاح لما تمنّى!...

– أوف ف! أوف ف!... المَيْ مهدورة باتّجاه بستان أبي حميد! هو، لا بدّ، هو...

وقفز فوق الساقية بحدّة ونزق، واتجه ملاحقاً جريان الماء. وقف!... مشى!... وقف!... تردّد:

– سيقع الشرّ؟ قلنا: خلصنا! أُواجه، أم أعود وأقول لأهل القرية: خذوا ماءكم، «ما حدا يستاهل الخدمة»، وأرمي المجرفة في وجوههم؟!... لكن، ماذا سيقولون عني؟ جبان؟... «لَهْ، لَهْ يا ابراهيم!... بِ هالاخرة؟ شو؟ خايف من الحبس، أم من الموت؟» وصمّم... تابع سيره مهمدراً عالياً:

– «ليكن ما يكون!...»

لكنّه ظلّ يتمنّى في قلبه: يا ربّ، أبعد عنّي هذه الكأس!... وصل إلى «مسكور» أبي حميد! الماء لم يدخل المسكور؟! وتنهّد عميقاً.

هذا شادي، حفيد أبي حميد، يقف قريباً من «المسكور»، كوردة في مواجهة الشمس الحادّة. طفل ابن سبع. وجهه متوهّج. يسرح العرق على خدّيه ورقبته ويبلّل أطراف شعره، وهو غير

عابئ. بيده حبل صغير يمسك به الجدي القائم على الحائط، يلقم أطراف العلّيقة. إنه جدي هديّة من جدّه لنجاحه في المدرسة. إنّه رفيقه في النهار، وحلم مخدّته في الليل. ولكم تمنّى لو أنّ لِليل شمسه التي لا تغيب ليرافقه ويمنحه ما يحبّ.

سأل «الشاوي» الطفل:

– مين دار المي؟

– أنا...

أجاب شادي، محدّقاً بـ «الشاوي» بأجفان لا ترتعش.

– «ليش؟»

– «بدو يشرب الجدي!»

تفاجأ ابراهيم الحبيب! لكنه ابتسم بسعادة، لأنّه أحسّ وكأن مسماراً حادّاً سحب من قلبه، فاندمل جرحه للتوّ. وتمتم في سرّه: بلى! لتشرب الجداء السوداء الطيّبة! لتشرب الجداء الشقراء والبيضاء والملوّنة! لتشرب، وتشرب حتى ولو جفّت عين الستّ، وكلّ العيون... وتقدّم من شادي. قبّله وأخذه من يده إلى ظلال الجوزة، يلحقه جديه. أجلسه ووعظه:

– «يا جدّو، الشمس قويّة، أنت تمرض، ويمرض الجدي. لا تعد إلى الوقوف في الشمس...»

– «يا جدّو، من اليوم ورايح لا تكسر المي. حرام، ييبس الزرع. جرّ جديك إلى الماء، إسقه ثم عد إلى الفيء».

– «سمعت يا جدّو؟»

فهزّ شادي رأسه موافقاً!...

بين العامّيّة والفصحى

شاء لي حظّي، في صغري، أن أرتاد المدرسة الرسميّة، في القرية، وهي ذات معلّم وحيد، وكانت تسمّى، يومها، مدرسة المعارف، والوزارة التابعة لها كانت «وزارة المعارف». مدرسة المعارف كان يؤمّها أبناء الفقراء، أمثالي، لكنّي لست خجلاً من ذلك! معظم أترابي أمّوها، ولا يزال كثيرون يؤمّونها، ويتخرّجون متفوّقين. أما القلّة التي التحقت بالمدارس الخاصّة، في المدينة، فكانت تتباهى علينا، فتطعّم أحاديثها معنا، وأمام الناس، بكلمات وتعابير باللغة الفرنسية، تمايزاً وترفّعاً!... لكنّ الخطير في أمر مدرسة المعارف، بالنسبة لي، هو أنّ ابن عمّي – رحمه اللّه – كان أستاذها وعميدها وسيّد قضبان الرمّان فيها. وابن عمّي هذا قضيب أسود، يلقّبه كسالى المدرسة «عصا الشحّاد».

هذه «العصا» أي، ابن عمّي، انهزم من الدير، أي هرب، على لغة أهل القرية، عندما وصلت اللقمة إلى «التِمّ» بحسب تعبير امرأة عمي – رحمها اللّه – أي لمّا أوشك أن يُسام راهباً!... أو لم يكن يقال في قرانا: «نيّال من له تينة سوداء»؟ ويقصدون بالتينة السوداء، الراهب، لابس المسح الأسود... ومعلوم أن التين غلّة هامّة عند أهل القرى، فهو ثمر طيّب، مغذٍّ، يؤكل صيفاً شتاءً؛ ويابساً أطيب منه أخضر، وأنفع، لا سيّما مطبوخاً بالسكّر أو الدبس، ومزيّناً بالجوز أو اللوز، فهو عندئذٍ، يغني، عند الضرورة، عن طبخة، فيسدّ الجوع ويستر المحتاج.

هكذا الراهب موسم دائم العطاء، عدا الجاه، وعدا الوعد بالسماء.

لكنّ ابن عمّي كره الديورة وذمّ ساكنيها، وكره فيها، بصورة خاصّة، شيئين: العدس واللباس الأسود. أما العدس فلأنّ الآباء كانوا يطعمون الأخوة شوربا العدس، يومياً، بالسوس المسلوق، السابح على وجه الماء، وذلك «مرتاً» لعنفوان الشباب، وتعويداً للمبتدئين على التقشّف والطاعة، وويل للمتمرّد!... فحرّم ابن عمّي طبخ العدس، على أنواعه، في منزل العائلة، وإلى الأبد.

أما اللباس الأسود فلأنّه، في زعمه، صفيق، يبطن غير ما يعلن؛ فَكَرِهَه، سواءً أكان على جلد راهب أم على جسد أرملة.

مزيّة واحدة، لعلّها مشكورة! حملها ذلك «الشالح»* ، معه، من الدير، بقي يجلّها ويحافظ عليها، ألا وهي براعته في نحو اللغة العربيّة! لقد كان يحرص هذا الاستاذ أشدّ الحرص على أن يرسّخ فينا ملكة اللغة، ويرهف إحساسنا بتذوّق الفصاحة، فلا يقبل في انشائنا إلا الصِحَاح من الألفاظ، وإلا السليم المتين في التركيب. وكان – رحمه اللّه – من أنصار «التقطير» في الأسلوب؟ يشتغل على النصّ، فيبدي ويعيد، يحذف ويبدل... حتى يخرج ذلك النصّ مسبوكاً قويّاً، ذا ديباجة مشرقة؛ مُعجِباً آسراً؛ فيسمّيه

* الخالع الثوب، ورامیه بعيداً. (سريانيّة)

«مثلّثاً»، تشبيهاً له بالعرق المقطّر ثلاث مرّات، والذي كان يعشقه ولا يرتوي منه.

هنا، في النحو، كان مقتلي لديه! كنت ألاقي منه عنتاً شديداً. كان يريد، على قوله، أن يصنع منّي «شيئاً»، مهما كلّف الأمر. كنت ضعيفاً في اللغة، يكثر في إنشائي الحُوْشيّ من كلام العوّام، فكأنّي أحرجه بل أؤذيه. كنت دائماً أقدّم دفتر الفرض، مسوّدة صفحته بريشتي، فيعود، نهاية الأسبوع، محمّرة صفحته بحبر قلمه! وكثيراً ما رمى الدفتر المليء بالأصفار، في وجهي، بقرف واستياء، فيتطاير في سماء الصفّ. وكثيراً ما عُدْت إلى البيت، مساءً، محمرّة أذناي من الفرك «والشمط»*، ومزرقّة راحتاي من قضيب الرمّان... أشكو لأمّي، فتشكو لأبي، فيقول على مسمعٍ منّي: «ما قصّر، يحرز دينه!...»

وكان يوم لا أنساه: موضوع الانشاء لفرض هذا الأسبوع كان وصف فقير. وصفته وأطلت. وكالعادة حشوته بألفاظي المأثورة: «شعره مكنفش»*. «ثيابه المجعلكة* كأن لايكها الكلب». «كَعْبش فيني» (أي: أمسكني بقوّة إلحافاً بالسؤال)...

عندما حان موعد توزيع الدفاتر قبعت أنتظر دوري على

* شد الاذن. (سريانيّة)

* في الفصحى: كنف: جمع. نفش: بعثر. وهنا: الشعر متفرق مختلط. (عاميّة)

* متجمّعة تكثر فيها الطيّات. (عاميّة)

مضض. كان دفتري أسفل الكدسة، أمامه، على الطاولة. ها هو يأخذه!... يرفعه أمام عينيه. يسحق بأسنانه، فأحسّ كأنّني أنسحق: تجمّع جسدي الصغير، وغاص رأسي بين كتفيّ، وانتفض قلبي يقرع، أخذتني قشعريرة، و... قطرات ساخنة في لِباسي الداخلي... عيناه الصغيرتان تتّسعان، تقدحان... قال:

– «فؤاد، تعال...»

لم يرمِ الدفتر في وجهي، بل وضعه على الطاولة بهدوء! نزع الساعة من معصمه ووضعها على الطاولة... هنا أيقنت أنّ زمن العقاب بالأسلحة التقليديّة قد ولّى، وأنّ هذه ساعة الحسم، ساعة الاقتحام، وقل الالتحام، بالسلاح الأبيض... ويا ويلي! سلاحي لحم طريّ... وحمل القضيب، هزّه، وضرب به الهواء ضربات أسمعت صفيراً حرق الريق في فمي. قال:

– «كعبش فيني»؟ متى سنخلص من ألفاظ «ستّك أم الياس؟» هذا القضيب «يكعبش فيك»، اليوم... دفعت جاري على المقعد ليفسح لي الدرب، وكأنّه العائق يمنعني الخروج!... ومع أنّه أفسح لي، بقيت مسمّراً مكاني، أمسك بالمقعد، أمامي، بكلتا يديّ، وكأنّه هو الذي أمسكني، لا يريد إفلاتي، وعلى لغتي: «كعبش فيني...» ابتعد رفيقي عن المقعد رافعاً بيديه، مفسحاً درباً أوسع، أوسع. نزل الأستاذ عن المنبر، وكرّر بحزم: تعال... وصلت أمامه. أمرني بهدوء: افتح يدك... واحد تنين، واحد

تنين... لا يشبع قضيب الرمّان من يديّ، ولا يتعب الاستاذ من الضرب! وبين الستّة قضبان والستّة التالية كنت أسحب يديّ وأضعهما تحت إبطي، وأتعصّر...

ثم:

– إفتح...

وتعود الكرّة... وأعاود التعصّر. وهكذا... حتى لم يعد بامكاني فتح يديّ! فانفجر غضبه، وانهال بالقضيب على جسدي في جميع نواحيه حتى لم يبق، كما صار رفاقي يخبرون، سوى «سقف حلقي» من غير ضرب.. وحتّى تكسّر القضيب، غير مسكته، فرماها وتناولني بشعري، بقبضتيه الاثنتين، «يليحني»* ، يتلّني فأقع أرضاً. أقف، «فيلبطني»، فأدور على نفسي. يرفسني فأقع من جديد، ومن غير نهوض، هذه المرّة! فيحملني ويرفعني! فإذا أنا مسترخٍ كخرقةٍ بين يديه... تركني متكوّماً أرضاً، وخرج يمشي بخطوات واسعة، مفسحاً في المجال أمام الرفاق ليتصرّفوا... أطلّ جريء منهم فرآه قد غاب في الزقاق، فتشجّع الآخرون وحملوني إلى البيت...

رأتني الوالدة، من بعيد، محمولاً، فولولت وهرولت إليّ. وسمع الوالد صراخها فهرول بدوره ليسمع رفاقي يقولون:

* يهزّني بعنف. (عاميّة)

– ضربه الأستاذ! فصرختْ: ضربة... وتابعت تشتم وتدعو، فزجرها الوالد بعنف، فأطبقت فمها سريعاً، لكنّها ناحت وأجهشت، وفاضت دموعها، وسالت خياشمها... فلمّا رأى والدي ازرقاق يديّ المتورّمتين، والأثلام الكاوية جسدي، رقّ، وماعت عاطفته، وزفر زفرة مخنوقة سمعتها بوضوح، فاستبشرت تغييراً في موقفه المعتاد! ولكن...

كانت أمي تغطّ يديّ بماء «الخبّيزة»* الفاتر، وتمسّدهما، برفق، وتدعو على يديّ ابن سلفهابالكسر، وعلى رقبته بالخلع، وعلى جسده بالهريان؛ وتسبّ دينه، وتنعته «بالشالح» مردّدة: «لو فيه خير ما كَرْشوه* من الدير»...، كان أبي يسمع، لكنّه لم يتصدَّ لها احتراماً لحرقتها ودموعها، ومع ذلك، مكابرةً، كانت شفتاه تتمتمان، كعادته، وبصوت خافت: «ما قصّر، يحرز دينه»...

إثر الحادثة انقطعت عن المدرسة أياماً ريثما أشفى ممّا نالني، ولعلّ أمّي قد بالغت قليلاً في إلزامي الفراش لتزيد في شعور الأهل بالاساءة التي ألحقها ابن سلفها بابنها، ممّا زاد في البرودة الحاصلة بين العائلتين النسيبتين الجارتين، عدا أبي الذي لم ينقطع عن بيت أخيه متجاهلاً الحادثة، متعالياً على جرحٍ كأنّه خدش بسيط، ولعلّه كان أدرى بما يريد...

* نبات معروف، له قيمة علاجيّة.

* طردوه. (سريانيّة)

أسبوعان، ثلاثة... ومالت الخواطر إلى الهدوء. وبدوري، شذّبت من إنشائي، وإن من غير نجاحٍ كبير. ولم يعد الدفتر يتطاير باتّجاه وجهي، إنّما صار الأستاذ يشير به صوبي من غير تعليق، ومن غير أن ينظر إليّ يناوله أقرب التلامذة إليه ليوصله لي. أفتحه، أقرأ التصحيحات فقط، إذ لم تعد هناك ملاحظات ولا علامات...

حلّ فصل الربيع، فخرج الناس، على عادة أهل القرى، إلى أمام أبوابها، يجلسون على المصاطب، وعلى سطوح الزرائب الواطئة، طلباً للانفراج وهرباً من رطوبة البيوت الترابيّة التي دامت طويلاً، فلا يأوون إليها إلا عند النوم....

ذات مساء، كان أبي يشرب القهوة مع ابن أخيه الأستاذ على المصطبة أمام بيت عمّي. كانا وحدهما، فسأل الوالد ابن أخيه:

– أليس عندك دواء لابن عمّك غير الضرب؟

فدمعت عينا الأستاذ القاسي، واحمرّ وجهه، وهزّ برأسه أن بلى... في اليوم التالي استدعاني إليه عصراً، بعد المدرسة وبدأ يدرّبني على الانشاء السليم بصبرٍ ورقّة أدهشاني كان يعرف ما أُحبّ وما أكره من الأمور ومن الأشياء، فيقول لي: صف كذا، اروِ اروِ عن كذا، وما رأيك بكذا وكذا... وكان يركّز خصوصاً على ما هو راهن وحيّ، فيضعني أمامه في موقف محدّد، ويدفعني إلى

التعبير عنه بكلام قليل، بسيط، مباشر... يأتي إليّ بنصوص أرغبها، ويقول: أكتب مثلها، على طريقة كاتبها، قلّد، استعر قليلاً، لكن لا تنسخ... ويأتيني بقصص مشوّقة، ويدفعني إلى حفظ ما يعجبني من تعابير ومقاطع فيها، وبحرّية تامّة... كان يأخذ ما أكتب، يلقي نظرة، يشير إلى الهفوات الفاحشة، ويتجاوز البسيطة. ثمّ، شيئاً فشيئاً، صار يشير إلى الصغير من الأخطاء، فالأصغر. وكان يكثر من التشجيع كلّما آنس ما يُعجب!...

وهكذا... حتّى تحسّن انشائي كثيراً فتعلّقت به ولازمته، فَلَكَأنّي تابعه، مما جعل أمّي تعلّق راضية: «خذ لك صاحب بعد قتله»!

وكان يوم آخر لا ينسى:

موضوع الفحص، آخر السنة، كان وصف حادثة صدام بين سيّارتين... لست أدري ما الذي طلع في بالي فجعلني أجعل الطرف الثاني من الصدام، والضحية رئيس الدير. واجتهدت في تنقيّة إنشائي غاية الجهد. كما حرصت على أن يتلقّى ذلك الراهب ضربة قاضية «تضيء دينه»، متجنّباً استعمال تعبير «تحرق دينه» ظنّاً منّي ان لفظة «تحرق» ليست على فصاحة تامّة. بعد التصحيح استدعاني الأستاذ إليه، وأمسك مسابقتي، لكنّه كان يبتسم هذه المرة. وقفت أمامه، بعيداً قليلاً. قال: قرّب. فتردّدت متوجّساً، كأن استفاقت بي الذكرى، ثم تقدّمت خطوة. فأشار

برأسه أنِ اقترب أيضاً، فاقتربت حتّى كدْت ألامسه. أمال الصفحة المصحّحة أمامي ووضع اصبعه تحت كلمة «تضيء» المشطوبة، وسألني: ماذا تقصد بهذه؟ وذلك حتّى لا يجعل التلاميذ يشعرون بفحوى التعبير، فأجبت على الفور: تشعل. عاد يسأل: وما مرادف: تشعل؟ قلت: تلهب. فلم يعجبه الجواب وهزّ برأسه رافضاً، وسأل: وماذا غير ذلك؟ فسكتّ خائفاً وقد «عييت عن رد الجواب»!. فابتسم ورفع صوته بزهو المنتصر، قائلاً بمرح: ألا تعرف ان فعل «حرق» هو من صميم الفصحى؟ قله ولا تخف، إنّه في مكانه الصحيح! ومدّ يده بالمسابقة مدّة رِضى. أخذت المسابقة وعدت إلى مكاني، غير مصدّق أنيّ تجاوزت الأزمة بسلام. كشفت المسابقة، فإذا بالكلمة الوحيدة المشطوبة صار مكانها كلمة «تحرق» بحرف سميك، وإذا بالعلامة ثمانٍ من عشرة، وهي علامة لا يطمح إليها، من ابن عمّي الأستاذ، حتّى الأدباء! ونظرت إليه، فرأيته يركّز عينيه عليَّ، فابتسمت له بحبّ، وابتسم لي ابتسامة، شعرت بها ملائكيّة، فتنهّدت عميقاً للسعادة التي غمرتني، لأنّي شعرت أنيّ صرت أديباً.

الراعي المدلّل

كلّ ذي عاهة جبّار...

أمّا عيسى الراعي فأكثر جبروتاً لأنّه كثير العاهات. لذلك هو بطل قرية وادي السيحان! وعيسى الراعي، في هذه الأيام، لا يقلّ غنىً عن المختار، ويتفوّق على الكاهن ومعلّم المدرسة في الشهرة وذيوع الاسم؛ فلا ينقضي سمر إلّا ونوادر عيسى مسك ختامه، ولا يدور حديث بين نساءٍ على تنّور إلّا ولعيسى فيه نصيب.

قرية وادي السيحان واقعة على كتف متطاول من الأرض، يحاذي الوادي الذي سُمّيت به. والوادي غنيّ بالعيون التي يتلاحق ماؤها ويتجمّع مشكّلاً مجرًى منتشراً، يتغنّى على الحصباء، أو يتغلغل بين الحشائش، بينما يحفّ به نبات الشيح العطر، الذي، بدوره، أعطى الوادي اسمه. وعلى هذا الكتف «تتشرشر» بيوت القرية، متباعد بعضها عن بعض، تحيط بها مقاصل وَدِمن، وتروح وتجيء إليها دواجن من كلّ نوع، قلّما يخلو منها بيت؛ فأهل الوادي فلّاحون ورعاة ومكارون... أمّا الكتف المقابل للوادي فحيزوم صخري كثير النخاريب، يأوي إليه طير البوم، وتختبئ به بنات آوى، ولا تطال أعشابه الشوكيّة إلّا معزاة جريئة.

في هذا الإطار نشأ عيسى، منذ درج، معّازاً ابن معّاز. «أحبّ المعزى وعشق البراري؛ وتحمّل من أجل عنزاته البرد والصقيع، لم يعبأ بمطر أو بريح، وكابد الحرّ وتنعّم بالظلال، عانى السهر

والخوف والتشرّد؛ يسرح مع قطيعه على الهضاب المتناهدة فوق هضاب، ويتوغّل في أعماق الغابات الموحوحة الدكناء، وينحدر إلى الوهاد السحيقة، النديّة الظلال. لا تثنيه صعاب، ولا تمنعه ذئاب؛ سلاحه عصاه، ورفاقه كلاب، وفي صدره قلب من صوّان.

وكان لا بدّ أن يحصل ما حصل ليكتمل فصل البطولة في حياة عيسى! لكن لا يمكن القطع فيما إذا كان الحظّ قد ابتسم له أم خانه، بعد تلك الحادثة... لقد التوى ظهره، وانعطب جنبه، وانكسر فكّه، عندما سقط عن ظهر بغلته العرجاء، كما زعم، يوم انجرد الذئب، فجأة، كسيف البرق وقبل أن تستروحه الكلاب، على تيسٍ كان يرعى تحت أنف البغلة التي نفرت فرمته مضرّجاً لا يعي... «لولا ستر اللّه (يتابع الرواية بلذّة خفيّة لا تكاد تحذرها) ولولا شجاعة الكلاب التي سارعت على صرخته، لكان الذئب فتك بعشر من المعزى، قل أكثر! ولكُنت، الآن، في رحمة اللّه»...

شفي عيسى بعد بضعة شهور أمضاها سطيحاً بين المستشفى والبيت؛ عاد بعدها إلى قطيعه، لكنّ شكله تغيّر وطباعه تحوّلت: كان منتصباً كرمح، فصار نصف مطويّ كزاوية البنّاء. كان يحمل عصاه، يلاعبها من يدٍ إلى يد، فإذا تحمله عصاه. صار يمشي فيمطّ عنقه إلى الأمام كمن يتطاول لمدّ رأسه من كوّة. يجلس فيبدو كفرعٍ من حطب يابس، تتلاقى فروعه، مرميّ، فلا تعرف

أين مبتداه... ولانت طباع عيسى: كانت عيناه الصغيرتان، الجامدتان، العاريتان من الأجفان، تقاومان المخرز، فإذا هما صارتا ناعستين، نديّتين، كأنّهما تغرورقان بالدموع، وتنظران من أسفل إلى أعلى. كان يكشّر في وجه أصحاب الأملاك التي يعتدي عليها، زامّاً شفّتين قاسيتين تتطاير فوقهما شتائم وتهديدات، فإذا تكشيره يتحوّل ابتسامة شاحبة، متملّقة، مستجدية. أمّا طلّته، بمجملها، فيزيّنها الخضوع والاستكانة.

عندما عاد عيسى إلى قطيعه بدا مصمّماً، غير متهيّب. هذا ما لاحظه عارف، جاره وزميله الراعي الذي بادر، أثناء محنة عيسى، فضمّ القطيعين وسرح بهما كقطيع واحد. ولم يقصّر أهل وادي السيحان، الطيّبون الأنجاد: بعضهم تكفّل بحدالة سطح المراح في الليالي الممطرة. بعضهنّ تبرّعن بحلب العنزات، يساعدهنّ الأبناء والأزواج في حراسة الجداء وتسهيل الحلب. منهنّ من أعددنَ الحريرة عشاء أو فطوراً للكلاب. رئيس الدير وهب التبن مجّاناً لعلف القطيع في الايام المثلجة التي لا تخرج القطعان خلالها من الزرائب. وتبرّع المكارون بنقله إلى الزريبة. حتّى الشيوخ، وحتّى العائدون التعبون من الحقول، مساءً، كانوا يميلون إلى الزرائب، فيقرفصون على «شاش»* السطح يتفقّدون سيرورة

* طرف السطح. (عاميّة)

العمل، بالحضور، بالمشورة، بالنصيحة. إنّها روح العونة التي كانت تنفخ الحياة بالعطاء والرحمة في أرجاء القرى!

ولم يقصّر عيسى بعدما غادر الفراش... شدّ مفاصله على قدر ما أسعفته الصحّة، فحمل بعضه بعضاً، ودار على الجميع شاكراً لهم جمايلهم، مستكثراً خيرهم، من غير أن ينسى رئيس الدير، فقبّل يده مرّات ورفعها إلى رأسه ممتنّاً.

عاد عيسى إلى قطيعه عودة العاشق الولهان! لكن لم يعد يسلك به دروب المراعي البعيدة، المعهودة. صار يسوق معزاه حول الحقول القريبة، ويدخل بها البساتين المهملة المعطّلة؛ وإن ابتعد، فعلى الهضبة القريبة مقابل القرية. في البداية كان يرتكب هفوات وتجاوزات صغيرة، يتجاوزها الأهالي ويغضّون الطرف؛ فذكرى بلواه قريبة، وشكله، بعدها، صورة تخرس المتضرّرين. مع الايام، اعتادوا تلك التجاوزات، فلا يتذمّر من لحق به الأذى خجلاً ممّن سبق إليه الأذى، كأنّهم يتنافسون في احتمال الأذى، فلا يكون أحد أقلّ مروءة من أحد... بعد حين، صار قطيع عيسى صاحب امتيازات، يحقّ له الدخول في الحرج المحميّ لأيام الشدّة، وساعة يهوى عيسى، فلا تطبّق عليه الأصول والأعراف. يرعى البورات حول البيوت، وحتّى في المقاصل أمام الأبواب، فلا ينتهره مخلوق. تطيش بعض عنزات فتدخل الجنائن، «تقرقش»*

* تقضم. (سريانيّة)

الأغراس، فلا يلام بأكثر من كلمة: «ولوْ يا عيسى!» فيردّ عليها بعينين وادعتين وابتسامة شاحبة ذليلة. وقد يطيش القطيع بمجمله، فيدخل بستاناً مزروعاً في طريق عودته، أو يغزو، عن طيش طبعاً، الأكداس على البيادر، في ليلةٍ مقمرة، فيحيل عيسى لوم اللّائمين وسخط الساخطين إلى الكراز المتمرّد، الخبيث الذي انسلّ، فتبعه القطيع. ألا! سوّد اللّه وجه ذلك التيس القائد الذي يسوّد وجه صاحبه الشاحب الابتسامة، المغرورق العينين!

وتطوّر الأمر مع عيسى، فصار لا يحلّل ولا يحرّم. إمّحت الحدود بين حلال وحرام! كلّ شيء جائز: ينقل قطيعه في البساتين القريبة، وبين البيوت حتّى ارتعى أحواض الزهر أمام الأبواب، بل كادت آنية الزينة الخضراء في الردهات لا تنجو من هتك وقضم، كما علّق أحد «دشمان» عيسى من الرعاة الحسّاد! ووافقه المختار معلّقاً بين مازح وشامت ومحرّض، ذات ليلة سمر، في ديوانه، قال: لم يبق لعيسى إلا أن يجعل من عنزاته عصافير تتنقل وتثغو فوق أغصان أشجاركم المثمرة!...

وكثر تمرّد القطيع في نهاية السنة الثالثة لحادثة الذئب. أين العجب؟ تناسل القطيع وكبر وسمن وفاض درّه! باع عيسى الحليب واللبن والجبن والقريش والذبائح المكتنزة والشعر والبعر. واكتسى بيته بالأثاث والرياش. واستحلت زوجته التلفزيون الملوّن عند المختار، فأتاها بمثله، وبالفيديو زيادة، وهو ما لا يملك مثله

المختار، مع أنّ عيسى لا يعرف وجهة استعماله. لكن طالما المال موجود، ليكن... أمّا البرّاد والغسّالة و«الهوفر» وآلة التسجيل ومطحنة اللحم... فسبقت في الدخول إلى البيت، لأنّها موضة دارجة في بيوت وجهاء وادي السيحان، ذلك أنّ نساء الوجهاء، عادة، يسارع إليهنّ «الأرتروز» فلا يعدن يتحمّلن التعب، وزوجة عيسى مثلهنّ...

صار عيسى وجيهاً... أجر صبيّين يسرحان مع القطيع منذ الصباح الباكر. ويتأخّر عيسى في النهوض، ليلحق بالقطيع، بعد الضحى، يراقب العمل ويوجّه المسيرة. وبعد، يحين موعد القيلولة، فيلعب بمنجيرته، تحت الظلال، حتّى يشبع عزفاً... ويسبق القطيع في طريق العودة إلى بيته، يجري اتصالات مريبة – كما وصف المختار علاقات عيسى – من غير أن يهمل شؤون العائلة، لا سيّما بعد أن أدخل أطفاله مدرسة الرهبان... لقد بدا على عيسى أنّه سائر على طريق الوجاهة سيراً متقدّماً، فهل يهجس بمركز ما؟ رآه المختار يتمرّن على قيادة السيّارة مع أبي حبيب، السائق العمومي الوحيد الذي يعمل على طريق قرى الناحية ومدينة طرابلس. المختار نفسه لا يقود سيّارة، ولا يقتنيها!

وظلّت الأمور تتفاقم. فصبيّا عيسى، الراعيان، غالباً ما كانا يعودان، مساءً، مع القطيع وقد أكلا قتلة، من غير أن تدخل «البهدلات» في الحساب! والنتيجة: يضاحكهما عيسى؛

يسترضيهما بالوعظ حيناً، وبالوعود أحياناً، وبالرشوة في كلّ حين: يشتري للواحد سكّيناً، وللآخر مزماراً. يعلّم الأوّل النفخ في المنجيرة، ويعلّم الثاني شرب «التتن»*، ويهدي إليه علبة معدنيّة محشوّة «بالتتن» العربي مع دفتر «ورق الشام»... بمثل هذه الأساليب يستعيد رضاهما والولاء.

ولمّا كان من دعوات أهل وادي السيحان المأثورة: «اللّه لا يعلّقنا بحكيم ولا بحكومة»، جاء ذلك في حظ عيسى، واحدهم لا يقصد مخفر «الجندرمة»، في مركز الناحية، شاكياً، إلا إذا عجز الأوادم والوجهاء... لكن هؤلاء، مع عيسى. عجزوا بل لاموا أنفسهم على تدليله، وندموا على صبر لم يحمل فرجاً. لقد أصبح الصبر شيمة يَندم عليها حتى الأوادم! لأجل ذلك، ومع عهد عيسى الجديد، بدأ «الجندرمة» يزورون قرية وادي السيحان: تبليغات وإنذارات وأخذ إفادات. ضبوطات بالحطب وبالاعتداء على المشاعات وحتّى بالمزابل...» ولحّق يا مختار إن كان فيك تلحّق!» شكاوى ضد عيسى بالاعتداء على الزرع. شكاوى من عيسى ضد الأهالي بإهانته، وبضرب الراعيين، وبحجز العنزات... وشايات كثيرة متضادّة بإمضاءات «مخبر صادق». ما أكثر ما صار «المخبرون الصادقون» في تلك القرية! فهذا التعبير لم تكن تسمع به قرية وادي السيحان من قبل، ممّا جعل المختار

* التبغ.

يضيق ذرعاً بضيوفه من «الجندرمة»، فيواجههم بمقولة اخترعها: «كذب المخبرون الصادقون وإن صدقوا»... وزاد في الطين بلّة، وفي المدهش دهشة أنّ الأهالي لاحظوا انحيازاً عجيباً من جانب «الجندرمة» إلى جانب عيسى الراعي الذي كان يخرج من كلّ تلك المشاكل «شرد مرد»* ، ضاحكاً في عبّه!

ذات يوم وقع عيسى وقعة ظنّها أهل القرية سوداء! بعد «التبشير»* فاجأ شمّاس الدير قطيع عيسى يرعى في الجنينة الجديدة، على منقلب التلّة المواجهة للدير! لا يُسمع للقطيع حسّ سوى دبدبة الأظلاف وهسهسة القضم. كان الصبيّان قد سحبا الجرس من رقبة الكرّاز، حتى لا يسمع طنين، وأشارا إلى الكلبين بالعودة إلى الزريبة للعشاء، فلا نباح...

كان غضب الشمّاس هادراً... قرص أُذن أحد الصبيّين قرصاً مؤلماً، وسحب من القطيع عنزة كنزاء، وجرّها إلى الدير... غضب الرئيس كان أشدّ وأقسى! أقسم، في نفسه، بشفيع الدير ليلقننّ هذا الراعي العاقّ درساً لن ينساه...

وجاء عيسى في اليوم التالي. دخل على الرئيس، متكوّماً على ذاته، مغرورق العينين، شاحب الابتسامة، كسيراً، يقرع صدره

* تعبير مألوف على ألسنة العامة كناية عن الانتصار بسهولة.

* موعد صلاة «البشارة» عند المسيحيين، السادسة صباحاً والثانية عشرة ظهراً والسادسة مساءً يقابلها بالفرنسية: Angélus.

أمام الرئيس معلناً: خطيئتي عظيمة، خطيئتي عظيمة جدّاً. التوبة، التوبة... وجلس مطأطئ الرأس يستمع بسكون وخضوع إلى عظة عنيفة، وتقريع مرّ، طالما سمعت منهما أذناه أعنف وأمرّ. لكن ما أدهش وما أعنف ما سمع في نهاية العظة: ألف ليرة هذه المرّة، قال الريّس. أمّا في المرّة الثانية، فالويل...

لم يكمل الريّس تهديده، لكن عيسى فهم من هزّ السبّابة أمام عينيه أنّ الأمر سيكون خطيراً... فانصرف بعد أن أشار الريّس أن المقابلة انتهت. بينما هو خارج سمع من ورائه تأكيداً: تأتي بالألف وتأخذ العنزة...

خرج عيسى كالمصعوق! لم يكن ينتظر أن يجد في ثوب الراهب قلباً لا يلين وعزماً لا يلتوي. كلمة الريّس عند «الشاويش»* لا تصير اثنتين. العنزة شاهد حيّ على الجريمة. ألف ليرة تشتري خمس عنزات. لكن ما هو أدهى، بالنسبة إليه أن الهزيمة مرّة واحدة تكون فاتحة هزائم مدى العمر.

ما العمل؟

ذكاء عيسى لا يخيب. إهتدى إلى الحلّ قبل حلول الظلام.

في صباح اليوم الثالث، على أسر العنزة، عاد عيسى إلى الدير، انحنى أمام الريّس، يريد تقبيل يده، فسحبها الريّس مشيراً

* رتبة عسكرية. رئيس المخفر. (فارسيّة)

بأصابعه: إدفع... وقائلاً: لا تضحك على لحيتي! لكنّ عيسى لم يأت ليضحك على اللحى هذه المرّة، بل... ودفع عيسى عشر مئات زرقاء جديدة، قبضها الريّس وراح يصفّق بها، بيمناه على كفّ يسراه، مبتسماً ابتسامة الظفر، بينما خرج الشمّاس ليعود بالعنزة الأسيرة، بقي عيسى جالساً ينتظر وينظر إلى الريّس المزهوّ نظرة اتّضاع ومهابة. لكنّ الشمّاس ما لبث أن عاد مبهوتاً: لاذت الأسيرة بالفرار! انقلبت سحنة الرئيس، وغامت الابتسامة الظافرة على شفتين مزمومتين:

– كيف؟

وقلب الشمّاس شفتيه وهو يركّز نظره على عيسى الذي بدا أكثر دهشة من الشمّاس ومن رئيسه الذي عاد ليصرخ:

– إقلب الأرض، ابحث عنها في كل مكان وعد بها حيّة أو ميتة...

لكن لا أثر لها في أرزاق الدير! كأنْ حملها الذئب وطار فوق الأسوار!...

وعاد الرئيس يمدّ يده بالألف، يردّها إلى عيسى، كما تسلّمها، وقبل أن يطويها ليضعها في جيبه. لكنّ عيسى جمع يديه خلف ظهره، ممتنعاً عن القبض:

– أريد عنزتي يا بونا الريّس. هذا حقّي، وذا حقّك بيدك!

– سأجدها. سأجدها حتماً... تعود إليك عنزتك ونسترجع الألف.

– أريد عنزتي يا بونا الريّس. أنتم حكمتم وأنا نفّذت. أريد عنزتي. أريدها!

– لكن يا عيسى...

– أريدها الآن، يا بونا. هذه أحسن عنزة، عندي. تحلب رطلين، لها توأمان رضيعان يثغوان منذ أمس الأوّل. إذا لم أعد بها إليهما يموتان جوعاً!...

وراح عيسى يثغو كجدي جائع، يُلِحّ في طلب عنزته إلى أن أسكته صوت الريّس الحانق الذي عيل صبره:

– خذ ألفك وانصرف. وخذ عنزتك متى لقيناها، و...

وخطف عيسى الألف وخرج مهرولاً، حتّى إذا ما غاب عن عيني الريّس ابتسم متنهّداً الصعداء، واضعاً الألف في جيب عبّه.

لم يطل انتظار عيسى أكثر من شهرين ثلاثة، لأن بكره مرض وأخذته حمّى عاصية، لم تنفع معها تعويذات ورُقى راقيات الضيعة، فوجّهت إليه زوجته نظرات الاتهام. وثقلت الحمّى على الطفل، فرفعت الزوجة صوتها مشيرة إلى فعلته الشنعاء مع الريّس ومع القدّيس شفيع الدير الغاضب! فخشي عيسى العاقبة، هذه المرّة، خشية المؤمن، استفاق فيه الإيمان، فسارع إلى غسل ذمّته

بالاعتراف بذنبه، إذ ظهر له أنّ عين الوقف ضيّقة، وكانت، هذه المرّة، أضيق من المعتاد... في صباح اليوم التالي تقدّم من كرسي الاعتراف واعترف للريّس أنّه هو الذي هرّب العنزة مع صبيّه الشقيّ. رفع صبيّه الأسيرة، ورفع عيسى الاثنين معاً، معتمداً على عصاه، إلى أعلى السور، فتلقاها الصبيّ الآخر وراح بها... ثمّ طلب عيسى الغفران لنفسه، وشحد الصلاة لشفاء بكره. وعاد بعد القدّاس، إلى بيته، مرتاحاً ضميره، مضموناً شفاء ولده. وكان يمشي خفيفاً، ممسكاً عصاه من وسطها، شاعراً أنّ قامته قد انتصبت من جديد.

أما ريّس الدير الذي ظلّ قابعاً في كرسيّ الاعتراف فشعر بارتخاء مفاصله، وبرعشة برد في جسده، كأن صبّ عليه دلو ماء مثلج!.

شحّاد تریزیا

الفضيلة لا ترويها الأخبار.
وأفاضل الناس لا تاريخ لهم،
شأنهم هذا شأن الأمم الهنيئة السعيدة.

ويل ديورنت.

قد يخيّل إلى القارئ أنّ هذه الأقصوصة ترمز، في منحاها العام، إلى حدث سياسي بارز في تاريخ لبنان المعاصر. إنّ هذا الرمز ليس مقصوداً.

المؤلّف.

عائلة سعيدة لا تاريخ لها؟ كيف؟

هل يجب أن تكون مأساة ليكون تاريخ؟

هل يجب أن يموت البطل ليُكتب الخلود؟

لماذا يجب أن يحفل الزمان بالأحزان والدماء، بالنار والدمار، ليكتب التاريخ؟ أليس هذا ظلماً للتاريخ؟

أما أنا فأزعم أنّ عائلة سعيدة عاشت في بلدتي وتركت تاريخاً مجيداً – بالنسبة لعائلة –، وخلد فيه اسم ربّة العائلة! هذه الربّة الفاضلة كان اسمها تريزيا.

كانت تريزيا فتاةً رقيقة جدّاً! خطب ودّها معظم شبّان البلدة، لكنّ عينها كانت على طنّوس، وعين طنّوس عليها. هي ابنة خاله وَتِرْبهُ. تربّيا معاً منذ درجا طفلين إلى ان اقترنا عروسين... بيتاهما يقعان في حيّين متباعدين من بلدتنا «أمّ الينابيع» لكنّهما كانا، في طفولتهما، يُودَعان، معاً، في عهدة جدّتهما، لتتحرّر الوالدتان في تدبير شؤون العائلة؛ فكلتاهما فلّاحتان تسعيان في النهوض بأعباء الحياة اليوميّة، تارةً مفترقتين، وغالباً مترافقتين، انْ في طلب الحشيش للبقرات، وإن في تأمين الحطب للتنّور؛ إن في جلب الماء من الساقية، وإن في احضار السليق للطعام. والسليق أعشاب برّية تصلح لطبخ أصناف من الأكل، يقوم بها أوْد العائلة.

كانت العائلتان تجتمعان في المواسم، وهي كثيرة: في الحصاد

والقطاف، في سلق القمح وفرك الكشك، في عصر الدبس وسحب العرق، وفي الأعياد والمآتم... طنّوس مع تريزيا، تريزيا مع طنّوس: يتخاصمان، وسرعان ما يتصافيان. تبكي، فيمسح دمعتها بسبّابته، فتبتسم! يغضب، يدير ظهره، فتهمس: طنوس! فيلتفت إليها ويرضى...

ما كان أطيبهما معاً!

كبر الطفلان قليلاً... صارا يجدان نفسيهما، كلّ يوم، تقريباً، على التلال المعشبة، وأمامهما بقرات وعجول يتنقّلان بها على ضفاف المجاري، وعند أطراف الغابات، في الوهاد، وعلى البيادر وحوافي الحقول...

لم يكونا يذهبان إلى المدرسة. المدارس لم تكن زيّاً مرغوباً في تلك الأيام! الصبيّ الفلّاح، **قلمه معوله، ودفتره حقول، وكتابه فصول في دورة الزمان**... والإبنة الفلّاحة، لماذا تَلْزمها المدرسة؟ ألتكتب رسائل الحبّ من وراء ظهر أهلها؟ فيصيرون، وتصير، لواك الألسنة؟!...

ما همّهما من غير مدرسة؟

هل أجمل من الحرّية؟...

يستقبلان الشمس، صبحاً، تنهض ناعسة، متثائبة، من وراء الجبل؛ فيسوقان البقرات إلى المراعي... إذا ما انتصف النهار

واحرورى، مالا بالرعية إلى الظلال لترتاح وتجترّ هانئة... ويتغذّى الراعيان الصغيران ممّا تيسّر في جرابيهما من زاد قشف حملاه معهما، على صداح الأطيار، وهينمة الأنسام، وانسراح النظر... فكأنّهما يتنعّمان بمائدة ملوكيّة!... إذ يشبعان، ينصرفان ليلهوا، تحت جنح البراءة، بألعاب الأولاد المسلّية، القريبة المتناول، من حصى الأرض ونباتها: يضجران من لعبة «اللاقوط»* فينسج لها من القشّ اللامع إسوارة ذهبيّة! وتبرم له منه عقالاً، تتوّج به رأسه؛ وقد تزيّنه بزهرة لاحت في الحافّة القريبة، أو بعشبة خضراء عطرة من كعب صخرة. وقد يقطع بسكّينه الحادّ بضعة من قضبان «العيرون»*، يشقّقها، ويركّب لها منها دولاب هواء، يدور غازلاً، عند الهبوب، كمروحة. وقد تعصب عينيه بمنديلها، العابق بفوح شعرها، وتنقف جبينه بأحد أصابعها سائلة: مين نقفك «يا قادوس»*؟ فيلتقط الإصبع الذي ظنّه ناقفاً، فإذا حزر تركت له إصبعها ويدها، قليلاً، في يده؛ وإلا سحبته بسرعة لتعاود النقف!...

* لعبة من عدة حصوات، ترمى في الأرض، فيأخذ اللاعب واحدة منها، يرميها في الهواء، ويجمع بقية الحصوات عن الأرض، ليعود ويتلقى التي كانت في الهواء معهن، فإن فشل يخسر.

* نبات معروف في لبنان ورقه كورق الحلفاء تحشى به المساند والفرش. سريانية.

* وعاء من فخار بحجم الرأس إذا نقفته يرن. (سريانيّة)

هكذا حتّى تميل الشمس إلى الغروب، ويعتدل الحَرّ، فيقودان الأبقار، ترتعي وهي في طريق العودة.

في مواسم الحصاد والجنى يغزر نشاط الراعيين الصغيرين: الأبقار ترعى في الحقول المحصودة. تريزيا تلحق «بالعفّارات»* ، وراء الحصّادين، بعد الرجاد، تلتقط الساقط من السنبل، تجمعه باقات باقات، وتحمله، عند العودة، ليخصّص حبّه مؤونة الشتاء من القمحيّة... امّا طنّوس، «نقّيفته» في عنقه، فيمضي إلى البيادر، أو يتسلّل إلى حقول الدُخْن، يصلي «الطوافيح»* وينقف العصافير...

ويتفقّد الأبقار بين الحين والحين... يطلّ قبالة تريزيا يريها ما اصطاد، أو يجلس تحت ظلال سنديانة وارفة، يتمرّن على العزف بالمِجْوِز، أو يقدّم خدمات للعملة في الحقل، من تأمين الماء، ونقل الزواويد، وردع القطعان عن اقتحام الأكداس...

في الأيام العاصفة، الماطرة، تقفر المراعي والحقول من روّادها، بشراً وماشية؛ فسهام المُزْن ترشق، وسياط الريح تلسع؛ والنبت والبذور، كلاهما مُعاقِر، مدمن، يريد أن يترع كؤوسه حتى

* اللواتي يجمعن ما تبقى من أغلال بعد القطاف. (سريانيّة)

* حجر عريض ينصب كفخ بوضع الحب تحته يطبق على العصفور لمجرد دخوله. كلاهما، الفعل والمفعول، سرياني.

ينتشي... عندئذ يصير «الرك»* ، في المعالف، على التبن، وعلى الشعير إذا تيسَّر؛ فتنقطع الماشية إلى معالفها، ويصير الفلّاحون إلى مواقدهم، يحلمون هانئين بالزرع والمراعي... هكذا تجتمع الأسر والجيران حول المواقد، يستدفئون ويتحدّثون مرتاحين...

يزور طنّوس بيت عمته، يمضي جلّ نهاره. أو تأتي تريزيا، مع بعض أهلها، تمضي ردحاً من نهار، في بيت خالها... يجلس الولدان مع الأهل والأنسباء، قرب النار، صامتين، هادئين إلا من بعض نظرات وبسمات وأحلام كثيرة...

لقتل الضجر، أحياناً، يُخرج طنّوس من جيوبه ما يكون قد التقط، في الطريق، من بَلّوط العفص والسنديان، يدسّه في جمر الموقد لينضج على مهل، فيستطيبه، على مرارته، الجالسون؛ يستعينون، بقضمه ساخناً، يحرق الألسنة، على تقطيع أوقات البطالة! وقد «تفقع»* واحدة منه تحت الجمار، فتنسحب الأقدام مسرعة من حول النار، وتنفض الشظايا من الأحضان، وعن «الحصيرة»* ، فيتضاحك الأولاد، وتنفرج أسارير الكبار، وتنكسر الرتابة... وإذا لم يكن في جيوب طنّوس بلّوط، فعينة الحمّص، في

* في الأصل ركم شيئاً فوق آخر، نقل العامّة الإستعمال إلى معنى الإعتماد الكلّي والإلحاح على الشيء.

* تنشقّ. (سريانيّة)

* بساط منسوج من القصب أو ألياف بعض النباتات.

الحاصل، ملأى؛ تَحفُن منها تريزيا، وتوزّع ضمّات، برؤوس أصابعها، في «الحوّاش»*، تضع عليها الجمر بالملقط، وتبدّل الجمر، وتقلّب الحمّص حتّى يقمارّ، ويصير طريئاً طيّباً، ترغّب به نكهة لذيذة... وإذا حانت الظهر، وكانت ربّة العائلة قد انشغلت عن تحضير طبخة الغداء، فقد تغني مطمورة البطاطا، تحت «الملمول»* الحارّ، عن وجبة كاملة. وحتى لو نقص الخبز، فإنّ «دريكات»* مشويّات على الجمر، تعوّض، مع الزعتر والزيت، عن غداء فاخر...

وتستمرّ السعادة ترفرف على العائلات الهانئة! أفليست الحياة السعيدة نسيجاً تحوكه الأيام، على الرضى، سدىً ولحمة، من اللذائذ الصغيرة، البسيطة، التي تحبّبنا بالحياة، وتخلق، بيننا وبين شركائنا في تلك اللذائذ الصغيرة، حميميّة دافئة، لتنمو الألفة بنمو النسيج، وتتقارب القلوب، وتتعانق؟

كبر الولدان...

صارا شابيّن!

تريزيا جاءها الشباب قبل طنّوس!... نهدت، بقدّها النحيل، واعتلّ خصرها بما ثقل فوقه، فهو مضنى... استدار الردفان تحت

* إطار من الطين المجفّف أو حفرة، أمام الموقد، يجمع فيه الجمر والرماد.

* فصيحها: الملّة أي الرماد الحار.

* عجين، قبل اختماره، يشوى استدراكاً للجوع.

الفستان الطويل الواسع، فلا تغوي استدارتهما الّا إذا عصف الهواء، أو إذا التفّ الذيل في رقصة، يغزل فيها الجسد الرشيق، حوله، الأشعة في عيون المعجبين...

... وجهها بيضوي صغير، ناعم البشرة، بلون الزهر، يشيع فيه الرضى. حوله تتدلّى، إلى الصدر، جديلتان كستنائيتان؛ و«الترائك»* الذهبية تثقل الأذنين قليلاً... عيناها السوداوان لوزيتان، واسعتان، تلمعان بوهج دافئ...

وتريزيا دائمة الابتسام، قلّما تلتقي شفتاها الرقيقتان على استياء، وقلّما يلتقي حاجباها على عبوس... إنّها فاتنة فاتنة، قامتها الضئيلة تنطق بالأنوثة، تقول: «لا تشدّ عليّ، اتكسّر بين ذراعيك» ... إنّه سحرها الخاصّ الذي يجعل أشرس المحاربين، يلقي بسلاحه تحت قدميها.

أمّا طنّوس فراهق. احمومر منخراه، وانتفخا. طرّ شارباه، واسودّ صدغاه، أمام الأذنين المتنبّهتين. صارت نظرتاه حادّتين، «وجرش»* صوته. جسمه نحل، واستطال على غير ليان.

شبّ الولدان!

خلّفا الماضي وراءهما...

---

* الأقراط. (تركيّة)

* خشن. عامية. جرش القمح. طحنه خشناً.

حملا من الماضي الحُبّ والذكريات...

لم يعد الناموس يسمح بأن يسرح الشابّان وحيدين في البراري، أو أن يختليا منفردين؛ وإن كانا نسيبين ربيبين...

صارت تريزيا برسم الزواج.

شرف الصَبيّة سترتها في بيت عريسها.

الحائمون حولها كثيرون...

وتريزيا متريّثة. تقول: «بعد بكير، هلّق ماني مفكّرة». وفي نفسها تقول: «ما في غير طنّوس، إذا تقدّم تزوّجت. طنّوس، ما في غيره، ومهما طال الانتظار...»

العائلتان لا تكادان تشكّان في أنّ الولدين لبعضهما، واحدهما للآخر!

لكن في فكر أهل تريزيا: «شو ناطر بو طنّوس؟ أيمتى هالصبي بدّو يْتْبَيْتَتْ؟ لو ما إيدو طايلي كنّا قلنا...»

وفي فكر بو طنوس: «شو صاير بعدن زغار عَالْهمّ، لاحقين...»

طنّوس بكر اخوته.

والده، بو طنّوس سلطان مخفي، لأنه فلاّح مكفي. يحسده الفلاحون في البلدة، وحتّى الوجهاء... أراضي سلطنته، في الجُرْد، تغطّي تلّة وسفحها، فوق الساقية، وتحتها. مزرعة كبيرة. فيها المرويّ وفيها البعل. فيها السليخ وفيها المشجّر، وفيها البور

المعدّ مرعىً ومحتطباً. إسمها «عين الشنبوق»*، على اسم العين، خاصّتها، التي تروي بمحقنها، الجلول المتدرّجة على السفح.

لكن طنّوس لم يجهز، بعد، ليتأهّل. أبوه لا يزال في عزّ عطائه، في كامل قوّته!... في رقبته عائلة كبيرة. بكره طنّوس رجله الصاعد، مُعْتَمَده في تدبير المزرعة، وموضوع اعتزازه. سيصير أوّل شركائه، وسينضمّ إليه الباقون، من إخوته، واحد بعد الآخر، حالما يتأهّل... وعندما يشيخ بو طنّوس، رأس الشركة وعميدها، يلتفّ حوله الأبناء والأحفاد، يجلّونه، ويؤدّون له واجب الطاعة والاحترام. إنه الحلم في نفس بو طنوس، حلم الأحلام...

وكي يتأهّل طنّوس، يجب أن يكون لديه بيته المستقلّ. الزمن تغيّر! لم تعد العروس ترضى أن تنزل في بيت حميّها، إلّا عند الضرورة القصوى. حال الضرورة، هذه، لا تنطبق على طنّوس، لأنّ حالة أبيه طيّبة. ولا على تريزيا، التي ليست غريبة، ولا مستعجلة. وهي على كل حال، تستحقّ أن تتدلّل في بيت مستقلّ!

أيضاً تنقص طنّوس عدّة الفلوحيّة: فدّان ومحراث وبقرة حلوب ودابّة ودجاج و...

مشروع البيت الجديد جاهز في فكر بو طنّوس: مدّ سطح البيت الوالدي على غرفتين متلاصقتين شرقيّ البيت.

* الشبّوق: سنديانة صغيرة. (سريانيّة)

لكن، على الأرض، لا يزال المشروع «مجالاً» شرقيّاً، ومقصلاً أمامه، ومزبلة!

متى يبدأ البناء؟

أبو طنّوس لم يقرّر بعد... إذا سئل «طنّش»![*] «شو صاير؟»

«كيف شو صاير؟»

«بعد بكير؟»

لأيمتى بكير؟

«لاحقين...»

«هنّي شو ع بالهم؟ ... البنت غير الشبّ!»

حوار...

لكنه لم يجر بين العائلتين! كان يدور في الضمائر... وفي الضمائر يدور ما يشبه الرحى. يدور ويطحن...

لم يعد الشابّان يلتقيان مختليين! إنّه مبدأ عام. يسهران مع الأهل والجيران والأصحاب في المناسبات والأعياد. يتبادلان النظرات، والابتسامات ذات المغزى، والكلمات اللمّاحة... لكنّ طنّوس لم يكن يعدم حجّة لزيارة بيت خاله. يدّعي انّ له حاجة هناك، فيجعل طريقه إليهم. غالباً لا يجد إلّاها، فتطول الجلسات الحرّة، إلى أن يدهم عائد من الحقل أو فضوليّ غليظ.

* تجاهل السؤال. (عاميّة). في السريانيّة: طمّش = غطّى وأخفى.

ولم تكن تريزيا، أيضاً، تعدم حجّة لزيارة بيت خالها، فيدعو الواجب طنّوس إلى مرافقتها حتّى منزلها.

... هكذا، وتريزيا تصدّ الخطّاب!

وطنّوس لا يقدم ولا يحجم!

ويكبر حرج تريزيا، ولا سيّما أمْ تريزيا، التي تبلع بريقها كلّما دار الحديث حول مستقبل ابنتها. تحتفظ بالبحصة في فمها، تحت لسانها، تغرز، تعقر، لكنّها تحاذر أن تبقّها، لأنّ الخوف من النكايات آلم.

وتكثر الأحاديث حول علاقة الشابّين... وأكثر ما تزدهر مواسم الكلام إثر الأعراس! بعد كلّ عرس قرص يدور، يُمضغ في الأفواه، ولا سيّما في أفواه العذّال.

آخر الأعراس كان عرس مغترب عائد في ربيع ذلك العام. كان عرساً باذخاً. وكان طنّوس نجمه، وكانت تريزيا قمره. وكان ذلك العرس حاسماً في قرار بو طنّوس؟!

... سهرة العرس طالت حتّى الصباح: شباب وصبايا. مازة وعرق. فرح وصخب. غناء ورقص ودبكة... **وخلع للحذر.**

نجم العرس طنّوس!

تريزيا قمره!

... ينوس صوت القصب. تأخذ الرتابة أقدام الدابكين، فالاحتفال في فتور!... يتغامز الحضور والراقصون، فيدفع هؤلاء تريزيا إلى رأس الحلقة... ما أن ترفع تريزيا يدها بالمنديل، وبرأسها تنفض الجديلتين إلى الوراء، وبكعبيها تنقر الأرض نقرات معلومات، حتّى تسري في السلسلة حرارة جديدة، فاشتعال! يشتدّ عزم النافخ بالقصب، فإذا عزفه أقوى، وإيقاعه أغنى، وأعطافه في انتشاء... ويثور الراقصون، فإذا الخصور ألين، وخبط الأقدام أرنّ، وارتجاج النهود في توتّر... يبلغ الاشتعال ذروة عندما تنفلت تريزيا من الحلقة، فتجري وحيدة في الميدان، كفارس الحكاية، جمح عن لسان راوية بارع، فهي الزهرة والعبير، والوتر والنغم، والقدّ والارتعاشة... فيدوّي حداء الرجال في ترويد، وتنطلق زغاريد النساء في هزيج، ويخلع طنّوس سترته يكنس بها الأرض أمام أقدام تريزيا... فكلّ يد تصفّق، وكل جذع يميل... وإذا الأبدان الشابّة في فوح مثير!... ساعتئذ يرمي طنّوس بالسترة بعيداً، ويندفع إلى الحلبة، فإذا هو المبارز الثائر في كرّ وفرّ مُوقَّعين: يتحدّى مُقدِماً، ويتراجع مُتحفِّزاً. يثب متطاولاً، وينحني مناوراً وهو يقرع الأرض بقدمين نزقتين. وينتصب، يد خلف الظهر، وأخرى تهزّ بالمنديل فوق الرأس الشامخ بكبر، بينما العينان «تشر قطان»* بالتحدّي... ساعتئذ يطمئنّ رقص تريزيا.

* يتطاير منهما الشرر، أي جُزيئات من النار. (عاميّة)

فهي كالنسمة المنسابة تروح وتجيء مائسة. تدور غير عابئة بالتحدّي، أو تواجه المبارز، عيناها في عينيه، جسدها في ارتعاش، نهداها في اهتزاز؛ وكلّ حاسّة في تناد... ينهزم طنّوس خارجاً من الحلبة، وتبقى تريزيا، في مكانها، على اختلاج، مُغْمِضة العينين، سكرى، ذاهلة، تَعْبَى، مستسلمة...

لم يمض أسبوع على سهرة العرس، ذاك، حتّى بدأت ورشة البناء في المجال، شرقيّ بيت بو طنّوس، على وقع القيل والقال والحثّ والاستعجال!...

بلا طول سيرة!

انتهى البناء خلال شهرين، في بداية الصيف... كانت المواسم مقبلة، فتأثّث البيت الجديد بكلّ ما تحتاجه أسرة جديدة، وما يلزم لفلّاح جديد...

وبارك اللّه في البيت الذي يخرج منه بيت!

العرس في أيلول.

وفي أيلول كان عرس ما له مثيل، ولا حتّى في الحكايات!... أدَبَ بو طنّوس وسخا.

أكلت البلدة وشربت.

رقصت وهزجت، وزغردت نساؤها.

والعروس تريزيا. والعريس طنّوس.

دبك طنّوس ورقصت تريزيا حتّى «الفنك!»*

استقرّ العروسان في بيت الزوجية...

جاءت تريزيا إلى الحيّ، فكأنْ حلّت فيه البركة. كانت كنّة الخير وجار الرضى. عرفها الجميع هادئة الطبع، سهلة التعاطي، نظيفة اللسان، محبّة، خدوم! يدها مفتوحة لقاصد محتاج، وعطفها مبذول لمحروم... عابرو السبيل يجدون في خبزها شبعاً، وفي مائها بلّة. حتى الشحّاذون الدوّارون لا يخيب لهم سُؤْل عندها. ان لم تجد لهم بقروش، فإنّ عطاءها حفنات من طحين وحبوب أو أرغفة وقنّينة زيت، أحياناً... فصار بيتها مقصداً ومطمعاً، يعود إليه من مرّ به، أو من لم يمرّ، فيمرّ...

هجم الشتاء عنيفاً هذا العام! لكن الأسرة الجديدة كانت قد تحصّنت في بيتها الجديد، لا تخشى فوران الطقس واجتياح العاصفة. لقد تجهّزت وحسبت كل الحسابات...

في منتصف كانون، كان نهار صاح، لكنّه مصقع. تظهر شمسه وتختفي خلف «قواميع»* الغيوم السوداء، المتدافعة. عاصفة تقترب!... وصلت ظهراً، فأظلم النهار، نصفه الثاني. نفخ الهواء واشتدّ. ما إنْ حلّ المساء حتّى انهمر المطر كاسحاً بزنود الريح القوية.

* العجب. أصلا. العامّة تقول فتّك في الرقص أي تمادى وأدهش.

* أعالي الجبال. والقمَعَة، بالفصحى، أعلى سنام الجمل. (عاميّة)

أضرم طنّوس ناراً متأجّجة، وتهيّأ لعاصفة قويّة، وجلس قرب تريزيا، ما على بالهما همّ...

كانت العاصفة تصفر في الخارج، وأحلام طنّوس ترفرف حول الموقد، أو تطير، عبر الليل الحالك، في سماوات مشرقة، فوق الحقول والبيادر والسواقي... تريزيا تحلم بسرير، وتحوك في خاطرها كنزة لطفل...

كانا مطمئنّين، غير خائفين من العتم والزمهرير. باب الخمّون الخارجي «مدربز»* ، معزّز بالنجر. باب غرفته متين، موصد. الأبقار على معالف ملأى... اللصوص يعجزون عن نقب الجدران العريضة، أو خلع الأبواب السميكة. الوحوش قد تقترب من الحي، لكن لا تقتحم، فالكلاب ساهرة!..

فكّر طنّوس!

لم يكد يذكر الوحوش والكلاب حتى علا نباح صاخب من كلّ الجهات!

ذئاب؟

ما هذا نباحاً تستثيره الذئاب!

لعلّ الليل يخبّئ...!

* مقفل من الداخل بحيث يتعذر فتحه من الخارج. (عاميّة)

وارتمى جسم ثقيل على الباب! وقَرْعُ شخص مكروب!

خطف طنّوس عصاه وقفز إلى الباب صارخاً:

– «مين؟»

فتح الباب شاهراً عصاه:

– «دخلك يا معلّمي! غريب مقطوع. بلدي بعيد، مالي حدا غيركن يأويني. الدني متل منّك شايف!»

– «فُوْتْ...»*

وإلى تريزيا:

– «عطيه تياب ناشفة يتعرّى فيها!»

لم تكن تريزيا بحاجة إلى إيعاز. جاءت بثوب قديم سميك... وأشار طنّوس إلى «الطارق المنتاب»، صوب باب «الخمون»، فدخل، أبدل ثيابه المبلّلة وعاد.

كانت تريزيا أعدّت للغريب عشاءً من بقايا العشاء، على طبق صغير من القشّ، فأكل وشرب... واقترب من النار يجفّف ثيابه.

سأله طنّوس عن شأنه، فقال:

– من الجنوب. أدور على أبواب المحسنين، أشحذ من مال

* أدخل. (عاميّة)

اللّه، لأُعيل عائلة أبي الكسيح... دهمني الطقس الظالم، كما ترى، فلجأت إليكم... كثّر اللّه خيركم!

قال طنّوس:

– وأنت كما ترى! البيت صغير. الأثاث قليل، ولا نملك فراشاً إضافيّاً، نؤسّس...

قال الغريب:

– «أتّكئ، هناك، عند «البرطاش»*. يطلع الصباح، ويفرجها اللّه... ممنون!... آجرك اللّه!»

ونظر إلى طنّوس بانكسار، وأحنى رأسه! ونظر طنّوس إلى تريزيا، فرأى على وجهها التأثّر فقال:

– خير، إنْ شاء اللّه!

كان الغريب شاباً أسمر، في عمر طنّوس.

مفتول العضل، قويّ البنية، متّقد العينين.

يخيّل إلى ناظره أن به بعض عنجهيّة...

كان الليل يتقدّم، ولهب النار يتطامن شيئاً فشيئاً. وكان الغريب قد **اطمأنّ وشبع واستدفأ**... صار يختلس نظرات إلى تريزيا، فيراها، كطبعها، باسمة، وادعة النظرات؛ مما زاده أنساً على أنس...

* أسكفّه الباب التي يوطأ عليها. الأصل فرطاش. (سريانيّة)

وقام طنّوس إلى «اليوك»*، فأتى بالفراش. وإلى القنديل، على «الكفتوره»*، فنوّصه... نهض الغريب من قرب النار، وراح إلى «البرطاش» يتّكئ.

دخلت تريزيا تحت اللحاف، جنب طنّوس، إلى نصفها، تسند كتفيها إلى المخدّة، بين صاحية وغافية، مرتابة!

طنّوس نام وعلا شخيره... وكان وجه تريزيا المستنير على بصيص النار الخامدة، يشعّ بالجمال. وعلى شفتيها انفراجة **غير طارئة**، تزيد وجهها بهاءً!

... ظَلّ الغريب، في نومه، فقرص البرد الغريب! نهض بهدوء، اقترب قليلاً من النار الهامدة... ثمّ اقترب أكثر فأكثر... ظَلّ يختلس النظر إلى الوجه الجميل الذي لم تتحوّل فيه بارقة! **ظنّ الظنّ**!... اقترب من الفراش، ناحية تريزيا، حتّى لامسه... توجّست تريزيا، فطوت ركبتيها، وتجمّعت على نفسها! لكنها لم تحرّك ساكناً!...

وظنّ الغريب! تجرّأ، دسّ بقدميه تحت اللحاف، فصرخت:

– طنّوس، طنّوس، الشحّاد، الشحّاد...

هبّ طنّوس إلى عصاه، فصار الشحّاد إلى الباب يفتحه...

* خزانة في الحائط، من غير باب، تحفظ فيها الفرش. (عامّيّة)

* مشكاة. (عامّيّة). مشروحة سابقاً.

كانت عصا طنّوس على ظهره، «فجعر»* ... وهمّ طنّوس بالثانية، فإذا الباب انصفق وراء الغريب... فتح الباب ونظر في الظلمة البرّانيّة، المطبقة بثقل الهواء الجليديّ والمطر المنهمر! لكنّ الشحّاد كان قد غرق في الليل البهيم، وابتلعته العاصفة.

* صرخ بقوّة. (سريانيّة)

لَوْلا النقش

آواه من تشرّد

علّمه صنعة

عوّده خصلة

و... أورثه امرأته الجميلة...

قليل حظ بران يسرى؟! هل اكتفى؟!

ذات ربيع جاء من المشرق. هذا ما كان يشير إليه بقفا يده وبحركة من رأسه، معاً، إذا سأله واحد: «من وين أنت يا ابراهيم؟»

منذ البداية عرف باسمه الأول: ابراهيم. ابراهيم فقط. لم يعرف اسماً ثلاثيّاً قطّ! استقرّ في البلدة، فتعدّدت أسماؤه: ابراهيم الغريب. الصبي برهوم. المشرقي. «اللّافي»... تزوّج يسرى، فصار له اسم وكنية: بران يسرى!

عرفته أزقّة القرية وأبواب بيوتها متشرّداً في سروالٍ بـ «طبّيلة»* مختصرة، وكمّين قصيرين حتّى ما دون الركبة بقليل. شعره الكثيف الأهدل، وجهه المستدير، ثيابه، أطرافه... كلّه، بلون التراب، إلا العينين فسوداوان متوهّجتان في بحرتين حوّاريتين واسعتين!...

* المكان الواسع في مؤخرة السروال، لها شكل الطبل. واسمه الأصلي «نَيْفَقْ»، فارسي، لأنّ السروال فارسي. وكلّما كبر النيفق كلّما دلّ على وجاهة صاحبه وغناه.

استعطى في يومه الأول. دهمه المساء فنام على تنّور مسقوف بالتنك. ثمّ استعطى يومين، ثلاثة... عرض عليه بعض ذوي الحاجات استخدامه. لماذا يستعطي وهو فتى سليم قويّ؟!... خدم في الحقول والزرائب والبيوت... ثمّ، استقرّ «جلّيساً»* في مطحنة، فكانت ضربة حظّه التي فلقت الصخر، وأكثر من الصخر...

رشد ابراهيم. اشتدّ ساعده. جاء لأحدهم بحملٍ من القمح إلى المطحنة. جلس أمام الباب، تحت ظلال الجوزة، ينتظر دوره. جاءه الخازن، صاحب المطحنة، جلس إلى جانبه، جاذبه أطراف الحديث ريثما ينتهي «التُمّ»*. قال الخازن وهو يقحقح:

ما رأيك، يا برهوم، تبقى معي، تسلّيني، نترافق، تقضيني غرضاً، ويستقضيك الزبائن حاجات. معي تأكل وتشرب، وتنام في المطحنة، فيها مأواك، وأنت آمن؟...

قطع كلام الخازن نوبة من سعال. ابراهيم بقي ساكتاً، يحدّق في الخازن ببرودة!... هدأت نوبة السعال، فأردف الخازن: «ولك خرجيتك»* تتفكّه بها كما تشتهي... ولك ثياب!...

---

* مساعد الطحّان.

* سعة خزّان القمح فوق الرحى. سُمّى كذلك لأنه كلقمة تملأ الفم.

* مال يخرج عن المتّفق عليه يعطى زيادة كمصروف خاص. (عاميّة)

لم يجب ابراهيم. ليس سكوتَ من رضي، بل كان يلوك العرض بفكره متردّداً. خاف أن يستنقِع، وهو ما لا يركب مع مزاجه المغامر!

وإلّا، لماذا هجر الأهل والبلد؟

في التشرّدِ شبعة وجوعات. نومة وسهرات!... لكنّ فيه صدمة غير المتوقّع، فيه لذّة المفاجآت... فيه لوعة التورّط ونشوة النجاة... **فيه الحرّيّة**.

حزره الخازن متردّداً. رغب في ترغيبه:

– أعلّمك الصنعة. تبقى كنزك الذي لا يفنى،

– صنعة الطحن؟!

قاطعه مستخفّاً!

– وصنعة النقش أيضاً.

– وما **النقش؟**

– «أووووهوهووو...» **النقش**، يا ابني، يجعل طيّباً ما لم يعد طيّباً. نافعاً ما لم يعد نافعاً... ويذلّل كلّ صعب عصيّ!

– يعني؟

قالها ابراهيم وقد لان بعضاً من لين عندما ناداه الخازن: يا ابني! عندها قام الخازن، دخل إلى المطحنة، وخرج يحمل بيده فأساً فولاذيّة. رفعها أمام عيني برهوم، وهزّها:

– هذه!...

– مَهْ؟

– «دردبيك*!»

– «دردبيك؟»

– نعم دردبيك. تنقر «وتنتش»*. هكذا: ضربات من فوق لتحت بالطرف المروّس، تنقر. وضربات من أمام إلى وراء، صوب صدرك، «تنتش». تضرب، أنت، بها وتضرب صدر الرحى الأسود القاسي حتى يقشعرّ بدنه ويصير مجدوراً، وبحيث لا تعود الحبوب «تدلس»* تحته عند الدوران بل تنطحن وتتحوّل إلى دقيق جيّد.

– هذه صنعة هيّنة، لا تحتاج إلى تعلّم!

– تظنّ. بل هي صعبة، وصعبة جدّاً. لا تَنْقاد، ولا تُجاد إلّا بتمرين طويل!...

– أنا، ما حاجتي بها؟ غير أنّي أعالج بها رحاك غير مأجور، غير مشكور؟

---

* معربة darde-pique.

* بمعنى خطف. (سريانيّة)

* عامّيّة. تحريف دلص أي ملس ورقّ.

– أنت لا تزال فتيَّ الزند، مجدول العضل. النقّاشون الماهرون، في هذه الناحية، نادرون. الطواحين، في هذا الوادي، تزيد على العشر... أنا، كما تراني، شيخ مريض، لم يعد بي نفع. أصحاب الطواحين يصيرون من زبائنك. ولا تنس الجواريش! الجواريش تَحْفى أيضاً. في كل بيت جاروشة تحتاج، بين الحين والحين، إلى نقش يجدّد شبابها! كلّهم يدفعون... على أنّنا، عادةً، لا نطمع بفلس الأرملة.

يكفيها ما هي فيه...

تنهّد الخازن، وعاد يقحقح... ابراهيم كان يحدّق فيه، لكن هذه المرّة بإشفاق، فلربّما وجد فيه بعضاً من أبوّة مفقودة، وخشي أن يخسرها مرّة أخرى!

– ماذا قلت؟

– أبقى معك.

فقام الخازن يعيد «الدردبيك» إلى مكانها، ثمّ يستأنف أعماله...

لازم ابراهيم الخازن فكان له ذا نفع كبير. لقد أظهر ذكاءً وهمّة. لَقِن مهنة النقش سريعاً، وحمل عن الخازن مسؤوليّات كثيرة...

والخازن أحبّ ابراهيم كولد من صلبه، هو الذي لم يرزق

أولاداً!... زمن الحصائد غنّى قصائد! كان شابّاً وسيماً، «عيّيشاً». ورث المطحنة عن والده الشيخ خطّار الخازن، وانفرد بها لأنّ بقيّة إخوانه هاجروا...

كانت المطاحن هاتيك الأيام، ضروع ذهب، تدرّه ليل نهار، عدّاً ونقداً. لا ينتظر الطحّان موسم قطاف ولا تصفية بيدر. لا يخشى نوبات الطبيعة، إذا جنّت، تنزل في أرزاقه الكوارث. مطحنته عند رأس الوادي. الماء في جبّها أبديّ الخرير، جادت به السنون أم ضنّت، فلا ينافسه زرّاع على ريّ. كيسه دائماً ملآن، ينفق منه، على رفاق التنعّم، عن سعة، غير عجلان، غير حاسب لقابل الأيام حساباً. تأخّر بالزواج، تقدّم به العمر، وتناوشته الأسقام، فدفعوه إليه دفعاً. دبّروا له يسرى. كانت في العشرين، وكان في الأربعين. هي ابنة عائلة مرموقة. زينة ذات رواء وتهذيب. جميلة بين الجميلات. رغّبوها فيه، فرغبت. لماذا لا؟ العمر؟ رغم الأربعين لا يزال على وسامة وبعض شباب. فكيف بالمال والجاه إذا اجتمعا في مثل هذا الرجل؟

تزوّجا.

مرّت سنون...

ما تأخذه الحياة منك تعطيه لسواك. لعلّها العدالة! لعلّه القدر ساخراً! يسرى عاقر! يسرى لم تنجب للخازن وريثاً، رغم جهود الأطباء، رغم النذورات للقدّيسين!

الخازن اشتهى ولداً فلم يعطَ...

ورضيت يسرى بحظّها، ورضي الخازن، فعاشا قانعين، يمنحها ما شاءت من مال ودلال، وتمنحه ما احتاج من عناية وراحة.

من زمنه الخالي، بقي الخازن يحب «مَزْك»* الكأس وصحون «المازه»* التي تعدّ له منها يسرى فنوناً. العرق البلديّ مشروبه المفضّل، يعدّه بنفسه من أجود الأعناب. إذا شرب ظهراً امتنع مساءً. ويمتنع ظهراً، أحياناً، ليشرب مساءً. حكمته طلب الارتواء! كانت يسرى تأتيه «بالزوّاده» إلى المطحنة في أيام معلومات، أو إذا ألحّ الزبائن وكثروا. تجلس إليه، تتغدّى معه، وتغسل ثياباً في السكر، ثمّ تعود عند العصر... لمّا صار ابراهيم معه، شاركه الكأس «والمازه». فالكأس، بالشراكة، تطيب أكثر. أحبّ ابراهيم العرق كثيراً، فصاروا ثلاثة على الغداء.

كان يوم قائظ. ترجرجت الرحى، تقطّعت جعجعتها، وتباطأ الدوران!

صرخ الخازن:

– «العالول»*، يا ابراهيم، «العالول»! عجّل!

* العرق الممزوج بالماء. (سريانيّة)
* الأكل الطيّب. فارسية.
* كرة بيضويّة من خشب في كوّة جب الماء في الطاحون تتحكّم بمرور الماء، وتعديل دوران الرحى. (سريانيّة)

خرج ابراهيم مسرعاً. دار حول المطحنة نصف دورة، قفز الجلّ متجهاً إلى القبوة، فرأى!

انبهر!

لكن «العالول» لا ينتظر. اقتحم القبوة نبش عيداناً يابسات تسلّلت عبر «الصيّاد»* «وسطمت»* «العالول»... أعاد ابراهيم كل شيءٍ إلى طبيعته، ما عدا الرغبة التي تفجّرت، فجأة، في قلبه...

لم يَرَ ابراهيم، في حياته، قدمين أنثويّتين عاريتين. لم يرَ، في حياته، ساقين بضّتين لامعتين. (ابراهيم من نسل المجاهدين القدامى الذين يعشقون السيوف اللامعة المجرّدة).

لم يرَ، في حياته، صدراً مكشوفاً، صقيلاً كمرآة، مضيئاً كفجر صيفيّ، تنفرج مرآته عن مجرى ناعم ما بين النهدين المتكوّرين.

ربما رأى شعوراً محلولات في رؤوس النساء النادبات، في قريته التي هجرها من زمان. لكنّ شعراً صفيفاً سارحاً شلّالات كستنائية، تتهدّل خصلاته على الكتفين، وحول العنق الناصع، وعلى الخدّين التفاحيّين، فهو ما لم يره في حياته!...

فاجأ ابراهيم معلّمته يسرى تجلس على حجر، تضع رجليها في

* شبك من عيدان يوضع في الساقية قبل جبّ المطحنة يمسك القشّ والأوساخ.
* سدّ. (سريانيّة)

ماء الساقية وقد شمّرت عنهما حتّى الركبتين، وفكّت أعلى أزرار فستانها، فتفاجأ... لم يعد من حيث أتى، حياءً، بل أكمل دورته حول الطاحون، وعاد ليجد كلّ شيء، عند الخازن، على ما يرام... خرج، مبتعداً عن الجعجعة، إلى ظلال الدلبة الوارفة، يستريح كعدّاء عاد لتوّه من سباق، يلهث، يعلو صدره ويهبط... في الظلال جلس ابراهيم ذاهلاً يعيد، في مخيّلته، تركيب الصورة التي رآها فزلزلت كيانه، ولم يعد الابراهيم الذي كان...

الأيام تدور

الرحى تدور

والصورة، في بال ابراهيم، تلحّ وتدور!...

كلما جاءت يسرى إلى المطحنة، في الأيّام القائظة، كان ابراهيم يختفي في أدغال الدفلى، قبالة قبوة الطاحون، يسترق النظر إلى معلّمته التي تجلس على حجر، جنب الساقية، مشمّرة، تضع قدميها في الماء، تحرّر شعرها، تتمشّط متمهّلة، تكشط ما يعلق على أسنان المشط من شعرها، تلفّه على أصبعها، تضعه في الجُمّ، خلفها... تنحني على الساقية، تحفن وترشق الماء البارد على وجهها وعنقها وساقيها البضّتين الناعمتين اللامعتين اللتين تحرقان الريق في حلق ابراهيم المختبئ... وشدّ ما كان يشتعل دم ابراهيم عندما تنحني يسرى فوق الساقية، فيكاد نهداها المطلاّن

كحمامتين أخفتا منقاريهما البنّيين في حضن صدريّة زهرية غاوية، يتدحرجان في الماء، لولا أن تمسك بهما الصدريّة الزهراء!...

وتعود يسرى إلى البيت.

في الأيام التي تلي كان ابراهيم ينزل إلى القبوة، يستطلع المكان الذي صار محرابه، يسائل الأطلال: الحجارة النديّة. التراب الرطب الذي تلقّى رشاش الماء عن بشرتها. الحصى في الساقية أمام المقعد الحجريّ حيث داست قدماها... ويستنبش لفائف الشعر المرميّة في أدغال الدفلى، يشمّ رائحته متنسّماً عبق الأنوثة المسكر، يتألّم من رغبة وحرمان، يتلذّذ، يعاقر معاناته ويحلم...

مرّات، مرّات... تحجّج ابراهيم بتفقّد العالول، فينزل إلى القبوة ليرى معلّمته في الوضع، إيّاه! يبتسم لها، يلقي نظرة على «العالول» و«الفراش»*، للحظة، ويعود كما أتى. لم يعد يبدو على يسرى تفاجؤ، إنوهال! بهدوء، تجمع ساقيها، تشدّ من طرف الفستان، قليلاً، فوق الركبتين المشعّتين. تضع يدها على صدرها كمن تزرّر الصديري، ولا تزرّر! تردّ الابتسامة لابراهيم ببعض حياء، فيعود ابراهيم إلى عمله وقد تزوّد أحلاماً جديدة لياليه، وإحساساً مكبوتاً بأن ألفة ما، خفيّة، كامنة، وحظّاً لها بالنموّ، تجمع بينه وبين معلّمته.

* دولاب تحت مخرج الماء من العالول يديره الماء فتدور الرحى الموصولة بمحوره.

مرّت أعوام أخرى.

اشتدّ الداء على الخازن. «شرّش»* في رئتيه، اغتذى منهما... ثم سكنت نسمة الحياة فيهما، وفي قلبه سكن الخفقان!...

انتحبت يسرى، ندبت، ولولت، ولبست الحداد... وحزن ابراهيم على معلّمه الذي **أحبه، كثيراً، كثيراً**.

يسرى بدت في ثياب الحداد أبهى. بشرتها صارت أنصع بياضاً!

مات الخازن!... لكنّ الرحى يجب أن تبقى تدور. الطحين يجب أن يخرج من المطحنة، دائماً، خبزاً للعالمين... ابراهيم بقي في المطحنة، وبقيت الرحى تدور، وبقي الطحين يخرج ليصير خبزاً. ويسرى، الوارثة الحزينة، تدير العمل.

بعد سنة، أكثر بقليل...

عادت يسرى تتردّد إلى مطحنتها، تتفقد العمل الذي يقوم به ابراهيم بكفاءة وأمانة... والحياة تمضي، والرحى تدور، والطحين يخرج خبزاً للعالمين، وكأنّ لم يكن، هناك، الخازن. الناس تريد طحيناً، طحيناً، سواءً أكان الطحّان خازناً أم ابراهيم!...

الجوزة الوارفة، عند باب الطاحون، عادت تورق وتثمر. الرمّان، خلفها، يزدحم بالجُلَّنار. أزهار الدفلى تنافس الجلّنار.

* دخل في عروق جسمه وشرايينه وأوردته. (سريانيّة)

والربيع يعلن القيامة، فيمشي الأخضر في الطبيعة، يحيي الأرض الموات... ويسرى عادت إلى عادتها، تغتسل وتبترد على الساقية. الآن صارت مفاتنها تطلّ بجرأة أكبر. إبراهيم، أيضاً، صار ينظر بجرأةٍ أكبر وأكبر! صار يقف أمامها، يجاذبها أطراف الحديث ودمه يغلي حتّى يتبخّر! هي، لم تعد تقرّب ما بين ساقيها، ولا تشدّ من أطراف فستانها الذي صار أقصر، ولا ترفع يدها إلى صدرها...

فاجأته:

– تتزوّجني يا ابراهيم؟

– آآآآآ....

– تـ تـ زَ وْ وَ جُ ني؟!

– لا توآخذيني، سيّدتي، أنا؟ أنا؟!...

نظر حواليه كأنّه يريد شيئاً أضاعه، يطلب مهرباً، عندما لم يسعفه الفهم، عندما لم يسعفه الجواب!

ضحكت يسرى، سارعت تقول:

– أنت أنت يا ابراهيم، تزوّجْني!

بقي مبهوتاً، على عينيه غشاوة، في فمه جمرة يفتّش عن الريق ليطفئها. في تفكيره شلل لا يسعف لسانه على الكلام!...

– ماذا قلت؟

– نَـ نَـ نَعم! لكن كيف؟

– «تتمورن». تذهب معي إلى الكنيسة، يكلّلنا الكاهن زوجاً وزوجة، وتعود معي إلى البيت.

هكذا!... استحقها ابراهيم. خرج من دهشته، عاد عقله يعمل... مع ذلك بقي ينظر إليها، واسع العينين، مفتوح الفمّ!...

تابعت يسرى بعذوبة فائقة:

– هل «تتمورن»، يا ابراهيم،... «كرمالي؟»

– «إذا أمرت، يا معلمتي، أتمورن، أتكوتل، أتذركس.... ما تشائين، ما تشائين. قولي. قولي».

ضحكت يسرى حتّى كادت تستلقي:

– فقط تتمورن. ولا أعود معلّمتك.

– بل تبقين. وأبقى برهوم، عبدك المطيع، رهين خدمتك، طوع إشارتك، تدوسين رقبتي ساعة تشائين!...

– لا. تصير حبيبي. أصير حبيبتك!..

جنّ ابراهيم! إنفتل وصعد إلى المطحنة. صفق الباب وراءه، يستعيد المشهد.

حلم ما كان؟!...

ما كان لم يكن حلماً. كانت تعني يسرى كلّ كلمة قالتها... وبقي ابراهيم مذهولاً، بين مصدّق ما سمع، ومكذّب!

«يتمورن؟ أيش يعني؟...»

مرحباً مارون!... أن يحصل على يسرى، ولو لليلةٍ واحدة، يطيب الموت عنده. ألمورنة أصعب أم الموت؟

– «متى أتمورن يا معلّمتي؟»

بادرها ابراهيم في أوّل لقاء بعد ذلك اللقاء!

– حقًّا؟!... (وبغنج)...: أعن إيمان، يا ابراهيم، أم عن طمع؟

وابتسمت...

رفع ابراهيم بيديه، متوازيتين أمام صدره. دفعهما باتّجاهها، بكلّ حماسة، وكأنّه يقذف بنفسه في أحضانها:

– «كلّني إيمان، يا معلّمتي، كلّني إيمان!»

إبتسم واستضحكت...

مورنة ابراهيم تمّت بسهولة: وضعت يسرى كاهن الرعيّة في أجواء الموضوع. أكرمته بسخاء، فتجاوب، بل اندفع آخذاً على عاتقه مفاتحة أهلها بالموضوع، وإقناعهم بأنّ في مشروع الزواج، هذا، مصلحة للجميع. أهلها الأقربون هم عائلة أخيها المتوفّي، والمرجع ابن أخيها الضابط في البوليس.

دهش الضابط! صدم!

– «ولو، يا بونا؟ كيف؟»

– «هي حال الدنيا، يا ابني. ناس تنولد. ناس تتجوّز. ناس تموت...»

– «إي. لكن عمّتي. عمّتي أنا! ثمّ هي أرملة الشيخ الخازن... وبرهون! برهون؟! لا أصل ولا فصل، ولا نعرف قرعة أبوه وين، ولا... ...»

بلغ الاستياء بالضابط حدّاً جعل لسانه يتلجلج، ولا يجد عقله الوصف المناسب...

– أنت قلت: أرملة. نعم أرملة! صبيّة وحلوة. والأرملة مثلها، لا حماية لها بغير الزواج... وفهمك كفاية...

بعد صمت قصير تابع الخوري: باللّه! قلّي: أيّاه أفضل؟ زواج كنسي من شخص غريب، لا وراه ولا قدّامه... الإرث يبقى مكانه، أم...؟

– أمهلني يومين ثلاثة...

– على مهلك... ولو أنّ في المهلة شيطان!...

الضابط يعمل في الأمن، في مطبخ الاستقصاء، العين الخفيّة الساهرة على أمن البلاد والعباد! لن يخفاه ما يطبخ الخوري وما

تبهّر وتملّح العمّة، الأرملة المتصابية... مع ذلك وجد في كلام الخوري بعض المنطق. المرأة، أيّة مرأة، حصنها رجل. فكيف إذا كانت أرملة، صبيّة، جميلة، من غير أولاد، صاحبة مطحنة؟!... قال في نفسه: الباب الذي تأتيك منه الريح، أوصده...

عاد الخوري بعد يومين. كان موضع ترحاب، فاستبشر:

– «قمحة ولّا شعيرة؟»

– «أنت موضع ثقتنا، يا بونا... تريد قمحاً، ليكن قمحاً! تريد شعيراً، أجلّك اللّه، ليكن قمحاً!...»

تضاحكا، وقلبا الموضوع إلى السياسة...

تزوّج ابراهيم يسرى!... صارت عائلته وكنيته، بيته وموطنه. وصار اسمه، على الألسنة، بران يسرى...

في السنوات الأولى، ترهّب ابراهيم لعشتروته، يضيء على مذبحها الشموع، يحرق البخور، يسجد أمام جسدها الوضّاء متعبّداً. ذلك الجسد الغنيّ بالمفاتن الأنثويّة، الذي كان يشتهيه عبر ذيل فستان شمّر قليلاً، أو زرّ وزرّين مفكوكين عند النحر! ذلك الجسد لم يعد مجرّد حلم مشتهى. صار الآن، بعريه كلّه، بحقيقته الناصعة، بين يديه. تحت تصرّفه... وأغدقت يسرى على أدونيسها الحبّ باندفاع عاشقة متلهّفة إلى الحبّ، وبثأر مراهقة تحرّقت الرغبة المكبوتة في دمها سنين، كانت فيها تقرب اللّذة

في فراش الرجل، تلامس الريّ، وينقطع المجرى... وقطف ابراهيم الجمال المشتهى، وعاش النعيم المرتجى.

الجوع، مهما كان عتيقاً، يلقى شبعاً على الموائد العامرة... عشر سنين أشبعت يسرى من جوعها إلى الفحولة، وشفت ابراهيم من حرمانه إلى الجسد الأنثويّ... لكنّ يسرى ما صارت تتذمّر من زوجها الثاني لِتعبٍ في رجولته التي كانت ما زالت في عزّ زخمها. ولكنها صارت تتذمّر من استبداد عادته الرديئة التي أورثه إيّاها الخازن!... العرق، أيضاً، صار تحت تصرّفه، رهن إشارته. أيضاً الموائد الشهيّة، السخيّة. صار ابراهيم يسكر!... بدأ متذوّقاً، هاوياً. استمرّ معتدلاً، ثم صار «يتقّلها»، وانتهى سكّيراً، عربيداً... كلّ ليلة يفرض ابراهيم على يسرى أنواعاً من المازه تشتهيها نفسه. «مدقّة»* العرق يجب أن تأتي إلى «الطبليّة»* ملأى...

يشرب ابراهيم ويشرب حتى يمتلئ بطنه ويثقل رأسه، وتنطلق حنجرته، فيرفع عقيرته بالغناء، كأنه لا يزال في الطاحون، وبكلّ ما في صوته من خشيش وفحيح وتجشّؤ وقيء... بينما رائحة الحمض تملأ المجلس.

يقطع غناءه ليسأل يسرى:

* قنّينة لها شكل مدقّة.

* طاولة صغيرة. (إيطاليّة)

– «كيف شفتيلي هالصوت؟»

تنتفض يسرى:

– «كمان بدّك طيّبلك؟! صار بدّك جمهور معجبين؟ إي يقطع ألك ولها الصوت...»

يهبّ ابراهيم، مترنّحاً، لينتقم لصوته المطعون. يصفعها هنا وهنا من رأسها. يصيبها مرّة ويخطئها مرّات، وهي تزوغ بين يديه، تدرأ عنها صفعاته، وتشتمه... تكبر القتلة وتصغر حسب نشوة ابراهيم، وعدد كؤوس ليلته، «فتطبّ»* يسرى على وجهها، وتنام «مبهدلة»*.

و... «ملّا*» آخره معك، يا ابراهيم!

ليلة عيد ارتفاع الصليب. ١٤ أيلول. ليلة لا تنسى! سكرة لا تعادلها سكرة... شرب ابراهيم وأكل ورقص وغنىّ وقاء، وسأل يسرى:

– «كيف شفتيلي هالصوت؟»

– «الجحش البايت بالمطحنة من دون عليق بيشهنق أحلى من غنانيك!...»

* تنام على وجهها. (عاميّة)

* مهينة، مذلولة. (عاميّة)

* للتعجّب والاستنكار. عاميّة. ربّما أصلها الفصيح: ما ها الـ آخره.

وكان غضب ابراهيم الساطع صفعاً، لكماً، ركلاً، شحطاً* بشعرها على الأرض... قتلة لا قبلها ولا بعدها!

استطاعت يسرى الإفلات. تدحرجت على درج السطيحة وهربت إلى بيت أخيها... وصلت بحال لم تسمح لها بتبيّن الشعور الذي لاقتها به أرملة أخيها. أهو شعور الشماتة أم الإشفاق؟... كلاهما مرّ!

– «إيش صابك؟»

– «الضربان، يبعتلو هريان. مين غيرو؟»

– «الحكاية ذاتها؟» يقطع إلك ولها الصوت»؟ ما هيك؟»

– «يقطع إلو، ولصوتو، ولساعتو، وللهوا الشرقي اللي قردفو* علينا!...»

– «هلّق*؟ قديش نصحناك ووعَّيناك!»

– «قلت: فرخ ديب، ويمكن يجوّي!* ...»

– «إي، ما جوّا... صار هوي جوّا وانتِ برّا!»

* جذباً، وجرّاً. (سريانيّة)

* قذفه. (عامّية)

* هذا الوقت؟ (عامّية)

* يصير من الداخل. أليفاً. (سريانيّة)

على إيقاع هذا الحوار راحت امرأة أخيها تغسل لها جروحها وتعالج كدماتها... ثم استحمّت يسرى ودخلت تنام مع أوجاعها ودموعها.

عاد ابن الأخ في عطلة نهاية الأسبوع. عرضت عليه عمّته آثار العدوان الأخير، العدوان النكبة! فاستفظع واستنكر وهدّد وتوعّد!... فانفجرت يسرى:

– هيدا آخر حدّ بيني وبينو. خلّصوني منو!»

– «أف أف! وصلت معك لهون؟ بعلمي كنتو أسعد من عصافير الجنّة؟!»

– «رجع لأصلو. وسخ. ما عاد اغتسل. ريحتو بتنفّر... كلّ ليلة بيسكر، بيشرشر ع تيابو، حواليه، ع حرجو، ع الطرّاحة، وين ما كان... وغسّلي يا يسرى، ونضّفي، وقحّطي وراه، وقرفي...»

«اللّه يرضى عليك، يا عمتي، لاقيلي حل!»

– «مورنتيه، يا عمتي، مورنتيه. انتِ والخوري بدكن تكتّرو زلم الطايفة!... حدا بِيقلّك: زواج ماروني؟ نسيتِ: «لا يفرّق بينكما إلا الموت؟»

– «ما بقى فيني عيش معو! لاقيلي حل!»

– «الحلّ بالتعايش يا عمتي. بالتعايش مع اللي ما منو بد!»

– «كل ليلة قتله وبهدله؟!»

– «حَلّي لسانك معو!»

– «كل الحلا يللي «لطّو»* ما بيّن معو! حلا اللسان رح يبيّن؟»

– «يعني ساوسيه* بتربحيه. ونحنا مِنوصّيه ومنشدّد عليه».

– **«أيّ سياسة مع القهر ومن دون كرامة؟»**

– «يا عمتي ما بقا فينا نقوّم العوجه. الواقعة وقعت! هي كلمة، قوليلو: حلو، لما بيسألك كيف شفتِ هالصوت؟»

– «مَاوْ حلو!»

– «صحيح... لكنْ كلمة بس. بترتاحي. قوليها، قوليها... وين المصيبة؟»

إستضحك وتابع:

– «شو بدّك تصلّحي الحكم وتحرّري الوطن؟ هيهات... أهل الوطنية عَ الضغط لانو وغيّرو لهجتن... صحف المعارضة قطعت لساناتها...»

– «يقطع إيدو ولسانو...»

* أكل بنهم وشهية. (عامّية). الأصل الصحيح: لعصه.

* لاطفيه وتملّقيه. (سريانيّة)

وتمّت المفاوضات... أعطى ابراهيم كل ما طلب منه من تطمينات، فعادت يسرى إلى بيتها على أساس أن قد تمّ سلام الشجعان بينها وبين ابراهيمها... وفي الليلة نفسها شرب ابراهيم كؤوساً مترعة احتفاءً بعودة زوجته الحبيبة، وغنّى، وسألها:

– «كيف شفتيلي هالصوت؟»

– «يا عيني. يا عيني، شو حلو! اللّه يسلّمك ويسلّمو».

ابتسم ابراهيم وهزّ رأسه مسروراً، مشيراً بيده في حركة «الدّردبيك». قال:

– «شفتِ النقش؟!»

مكتبة سماحه

بيروت - جديدة المتن
هاتف: ٨٩٠٩٣٩(٠١) - ٢٣٤٦٣٦(٠٣)
جونيه - غادير
هاتف: ٩٠٠٣٥٣(٠٩) - ٢١٣٤٢٦(٠٣)
فاكس: ٦٤٢٢٧٣(٠٩)